المتوحشة

رواية

تأليف

مي الحجار

obeikan.com

طبعة ٢٠١٧

الحجار، مي

المتوحشة: رواية/ مي الحجار،تصميم الغلاف/ ريم السخاوى- الجيزة: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامي، ٢٠١٦ .

٢٣٢ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٢ ٤٥٣ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ - السخاوى،ريم (رسام) ب-العنوان

٨١٣

obeikan.com

المتوحشة

رواية

تأليف

مي الحجار

obeikan.com

رئيس مجلس الإدارة
عادل المصرى
عضو مجلس الإدارة المنتدب
نوران المصرى
رقم الإيداع
٢٠١٦/١٦٣٥٣
الترقيم الدولى
٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤٥٣-٢
الطبعة الاولى
طبعة ٢٠١٧

الكتاب : المتوحشة

المؤلف : مي الحجار

الغلاف : ريم السخاوى

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

obeikan.com

المقدمة

"أتحداك أن تكرهها.. تلك المستذئبة رغم شراسة جمال ملامح وجهها.. وللحظات ستحتار هل هي نفس عاقلة ولكن شريرة أم مريضة نفسية تهذي أم شيء أخر غامض؟!.. فهي ستمد يدها من بين سطور كتابي هذا وتقتلع قلبك لتأخذه لدنيتها الدموية.. وتخبئه بين قتلاها التي تفننت في تعذيبهم قبل طعنهم بخنجرها الحاد ودفنهم في قصرها وستجعل منك شاهد عيان لجرائمها ولقصة حبها، الفريدة في نهايتها!.. فروحها ببساطة مثال أسطوري للحظة الاختيار الحر.. التي فيها قد يتحول القديس للص أو تتحول فيها الغانية لناسكة.. أو الإنسان لوحش.. ولكن يبقى السؤال إلى ماذا ستتحول أنت بعد أن تنهي كتابي هذا؟.. إن وصلتك رسالتي.. فأنا أعلم كيف سيكون حالك؟! "

ولا تخف يومًا التفكير.. خوفًا من التكفير.. فحتى الجن مخلوقات واعية ولها فكر وتبحث عن الحقيقة.. وانظر قوله تعالى على لسان الجن :

(وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) [سورة الجن : ١٠].

ففـي تلـك الايـة الكريمـة كانـت الجـن تلـك المخلوقـات الناريـة تبحـث عـن الحقيقـة.. فمـا بالنـا نحـن البشـر.. مستسـلمين لأفـكار عفـا عليهـا الزمـان.. فالإنسـان حتـى يكون مدهشًـا ورائعًـا وحكيمًـا.. يجـب أن يدخـل قبـره أولاً.. فنحـن نلقـي قلوبنـا للموتـى، أكثـر ممـا نصغـي للأحيـاء .

فعـار في نظـري أن نقابـل الرحمـن بـكل هـذا الجهـل، الـذي يولـد بـه الإنسـان، فالعلـم يزيـد نـور القلـب.. ويمنحك حياة قليلـة الأحزان.. فانشـغالك بالمعرفـة.. يشـغلك عـن مراقبـة حالـك وصدمـات الحياة!!!

وإليك كلمتي الأخيرة: «اقرأ "

"هاربة"

"مجبرة الهروب.. إلى المجهول...

حيث الغابة الواسعة.. وأسطورة الغول...

فهذا ثمن رفضي..

كون قلبي ضحية.. وبه مفعول...

ولكني خائفة..

من شبح كان يومًا لإنسان.. مات مقتول...

obeikan.com

إنسان ثار بعد أن رفض.. حكام بأنصاف عقول...

حكام.. توقف بهم الزمن.. في حقبة التتار والمغول...

لكن.. ليس أمامي..

سوى الهرب.. فلن أقبل البقاء وأنصاف الحلول...

إلى الجحيم أيها الخوف..

فقلبي عاد يدق.. والحرية.. نمر بين ضلوعي يجول..."

مي الحجار

obeikan.com

obeikan.com

١-شموع القصر

كل قناع.. مهما كان متقن الصنع دائمًا به ثقب صغير.. يفضح إما نور قلب صاحبه أو سواده.. فقط تأملوا الأقنعة جيدًا.. ولا تغركم ألوانها المبهجة!

الصفعة المدوية أثارت انتباه جميع الحضور.. فالكل فجأة التفت ليرى مصدرها .. ليرى وجه السيدة «زينب»، الذي كان شديد الاحمرار من أثر الصفعة، تلك السيدة مصرية الملامح، من بشرة خمرية وعيون بنية ضيقة ولكن طيبة النظرة، التي كانت تحمل بقامتها الطويلة هزيلة البنيان في استكانة وضعف، صينية فضية كبيرة وثقيلة الوزن، وعليها العديد من الكئوس الممتلئة بكافة أنواع العصائر، التي كانت تقدمها في حفل أختها، الذي كان في الظاهر دعوة كريمة من صاحبة البيت للعشاء مع الأصدقاء، وفي الخفاء مؤامرة للإيقاع برجل مغربي الجنسية، ثري، ومحاولة اصطياده والزواج به.. فقد صفعتها لتوها، أختها الكبرى «فادية»، على وجهها أمام الجميع فقط لأنها أوقعت- دون قصد- العصير على ثوبها، الذي دفعت به ثروة؛ لتبدو من سيدات الطبقة الراقية.. وتحملت «زينب» الإهانة أمام الجميع وصار همها فقط تنظيف الفستان الغالي لأختها، التي تعيش في قصرها، هي وبناتها، كخدم لها، لا أكثر ...

«زينب».. هي الأخت الصغرى لـ «فادية»، فتلك الأخيرة ورثت هذا القصر الفسيح، القابع بعيدًا عن زحام العاصمة القاهرة، العامرة بالمساجد والكنائس، والسكان والسيارات، والمراكز التجارية العديدة، على أطراف مدينة السادس من أكتوبر.. ورثته عن زوجها الذي كان يكبرها بثلاثين عامًا، والذي بعد موته، دأبت «فادية»، على تعويض كل ما حرمت منه خلال الثلاثة عشر عامًا التي كانت فيها مجبرة وكارهة وقضتها معه، فقد كانت ترى هذا القصر في أثناء حياتها معه، كسجن في الحجيم مع سجان قاسي، لا زوج.. رجل مرضه الجسدي- بحكم تقدمه في السن- جعل منه مريضًا نفسيًا.. فالسجان يكرهك.. ولكن لا يريد إطلاق سراحك ...

لقد قبلت به «فادية».. كزوج نظرًا لثرائه وتأخرها في الزواج وغيرتها الشديدة من زواج أختها الصغرى قبلها، فهي رغم جمالها لم ترتبط برجل قبل بلوغها سن الأربعين، وكان هذا الزوج، الذي لم تحبه يومًا، أو تراه كرجل يسعدها كامرأة.. فقد كانت دائمًا تتعالى على الناس، وترى أنها ولدت لتكون «ملكة»، وليست شخصية عادية، وامرأة فقيرة، ولم تفعل شيئًا لتحسن من حالها، فهي لم تكمل تعليمها، واكتفت بتعليم متوسط، وكانت تعمل قبل زواجها، مجرد موظفة صغيرة في مركز تجميل.. تتلقى مكالمات الهاتف لتؤكد حجز الزبائن، وكانت زوجة، زوجها المرحوم، أحد

الزبائن.. وتعرفت على الزوج عن طريق الزوجة.. وفي يوم وفاة الزوجة كانت في القصر بين أصحاب البيت تقدم وتتلقى العزاء، كأنها واحدة منهم.. وفي اليوم السابع لوفاة الزوجة.. تزوجها صاحب القصر الذي يعيش وحده بعد زواج بناته الأربع؛ لتصبح هي صاحبة القصر.. وكان هذا إنجازها الوحيد الذي محا عن حياتها الفقر وقهر العمل إلى الأبد ...

ومات الزوج.. وتحقق حلم فادية.. وورثت القصر وبعض الأموال التي نجت من تقسيم الميراث بينها وبين بناته من زوجته السابقة له، وعاشت حياتها بكل حرية وبكل عبث، وفعلت المسموح لها والغير مسموح حتى زوج أختها «زينب»، «ناجي»، تزوجته عدة أعوام، قبل موته في حادث سيارة بعد أن أغرته بمالها؛ ليطلق أختها الصغرى، ويتركها هي وبناته الثلاث.. «هدى.. رهف.. وملك».. لم تكن تحبه، ولكنها كانت تحسد أختها عليه وعلى بناتها منه.. فقد كانت ترى أن أختها الفقيرة حصلت على ما حرمت منه هي، البيت السعيد والزوج والأولاد؛ ولذلك فعلت المستحيل لتهدم ذلك البيت.. وتهدم فعلاً البيت.. واضطرت «زينب» للعمل في كل شيء وأي شيء حتى تربي بناتها، فلم يكن أبدًا ما يدفعه «ناجي» طليقها يكفي لسد حاجات البيت من مصرفات ونفقات البنات بل كان أقل من القليل، واضطرت أحيانًا للعمل كخادمة

في المنازل.. فقط لتجد قوت بيتها الذي أصبح بلا رجل يعوله.. فالرجل عندما يتزوج للمرة الثانية ويهجر العائلة.. فهو يتزوج على أطفاله لا زوجته.. ويهجر أطفاله ويسلمهم للضياع لا زوجته ...

وبعد أن مات الزوج.. المتنازع عليه من الأختين، لم تجد «زينب».. سوى قبول البقاء في قصر أختها الرحب بما ضاق من ذل ومهانة من عملها كخادمة به مسئولة عن التنظيف والطبخ وإدارة شئون البيت وخاصة بعد طردها هي وبناتها من شقتها لعجزها عن سداد إيجارها الشهري والنوم مع بناتها الثلاث في نهاية يومها العصيب في حجرة صغيرة حارة الجو بجانب مطبخ القصر.. حجرة من شدة حرارتها يمكنك أن تشم رائحة دهون جسدك وهي تحترق وأنت موجود بها صيفًا.. ويتجمد الدم في عروقك شتاءً.. من شدة برودتها ...

وكانت «فادية» قد عرضت على أختها البقاء معها فقط لتجد من يهتم بأثاث قصرها، وطبخ طعامها، بأقل مقابل مادي ممكن، وأيضًا من أجل الانتقام أكثر من أختها التي حبتها الطبيعة بالقدرة على الإنجاب، وحرمت منها «فادية» صاحبة الأموال ...

نظفت «زينب» الفستان في ذل وخنوع لأختها الكبرى، ثم جمعت الكئوس الفارغة وعادت لمخبئها حيث مطبخ القصر مرتفع

درجة الحرارة من كثرة المواقد والأواني التي عليها لإعداد العشاء لضيوف قصر أختها الكبرى ...

لم تتأخر ابنتاها «هدى» ذات العشرين عامًا والتي تلقت تعليمًا متوسطًا واكتفت به وجلست في البيت لتساعد أمها وتوفر في المصروفات، و «رهف» التي كانت في الثامنة عشر وطالبة في كلية الهندسة في مساعدة أمهما في إعداد ذلك العشاء الضخم لعشرات الأفراد.. ولكن ابنتها «ملك» ذات العشرة أعوام بقيت ساكنة تشاهدهن بعيون غير واعية لشيء، فالطفلة المسكينة ولدت بما يعرف طبيًا باسم «متلازمة داون» أو الطفل المنغولي.. ويصنف الطفل المنغولي مع الأطفال المتخلفين عقليًا ...

وانتهى العشاء الأخير.. فقد كان أخر عشاء كبير تقيمه صاحبة القصر «فادية».. ونظفت زينب وابنتاها كل شيء قبل نومها.. ولاحظت «رهف» على أمها دموع عينيها التي كانت لا تتوقف أو تهدأ، فالأم سكتت على الإهانة، ولكن ذلك لا يعني عدم شعورها القاتل بالألم والكدر، نامت الأم محسورة على حالها.. ولم تصحُ...

وجه «رهف».. لوحة رائعة الجمال.. عينيها واسعة كبحر الصيف، ولون بشرتها الأبيض يجعل شعرها الأسود يضوي

سحرًا، أما شفتاها.. فكانتا الهلاك والنعيم مجتمعين.. فمها صغير وشفتاها ممتلئة حسنًا وإثارة ورغبة في تقبيلهما ...

ولكن كل هذا الجمال توحش عندما دخلت لتوقظ أمها صباحًا كعادتها لتقبلها قبل الذهاب للجامعة وأخذ مصروف يدها منها.. نادت على الأم :

"أمي.. أمي.. هيا استيقظي.. أريد مصروف يدي.. أريد أن أذهب للجامعة.. أمي.. لماذا لا تجيبين؟؟؟.. أمي.. أمي."

وبدأت تهز جسد الأم الميتة حسرة على حالها وحال بناتها؛ لتوقظها.. وطبعًا.. لم تصحُ الأم.. فقد ماتت كمدًا وغمًا ...

تم دفن الأم في مقبرة العائلة، وادعت الخالة الحزن الشديد أمام الناس على موت أختها التي قتلت روحها، فمات بسهولة جسدها الهزيل.. ومثلت البكاء الحار واحتضان الثلاث بنات اليتيمات.. مثلت ومثلت حتى صدقتها الناس وتعاطفت معها...

"أمي"

أمي.. أمي.. أمي..

لماذا أناديك.. ولا تردي؟!

لقد..

صنعت لك ..

وشاحًا من عباراتي بلون الماسي...

وكم كان هذا على طفلتك قاسي.....

بيني وبينك.. سبع سموات..

ولكن قلبي لحبك ليس بناسي.....

ليتك كنت..

أمي فقط.. أو صديقتي فقط..

أو ابنتي فقط.. أو حبيبتي فقط..

ولكنك كنت كل ناسي.....

وأشعر في بعدك.. أني يتيمة...

والحزن على روحي جاسي.....

فالشوق إليك جلادي..

والوحدة صديقة.. والمرار كاسي.....

فالآن أصبحت..

شجرة عجوز مهملة..

obeikan.com

فقد اقتلعت من أساسي.....

وماتت كل أحاسيسي ..

بعد فراقك.. وتحقق أبشع كوابيسي.....

«أمي.. كنت سأحفر صورتك على قلبي.. ولكني خشيت أن تزعجك دقاته»...

ومن أول ليلة استمر البنات الثلاث في خدمة الخالة كما كانت تفعل الأم.. واستمرت الإهانات والقسوة من الخالة لهن.. وتحملن ...

بكاء الأخت الصغيرة «ملك» أيقظ «رهف» من نومها مقطوعة الأنفاس.. وشعرت بوخز خفيف في قلبها وذلك لاستيقاظها فجأة مفزوعة، وهي التي لا تزال في مهد شبابها.. ولكن قلبها رغم حداثة سنه، فقد تحمل وجعًا لا طاقة لبشر به.. فقامت مسرعة حيث تنام أختها التي منذ موت الأم منذ عدة أشهر وهي تائهة شاردة لا تأكل ولا تنام جيدًا.. حتى اللعب والضحك، توقفت عنهما تدريجيًا ...

بكلتا يديها احتضنتها، وظلت تهمس لها بأغنية تحبها الطفلة، وتعدها بأن تشتري لها في الصباح كل الأشياء الجميلة التي تحبها

وتذهب معها للتنزه وتلعب معها بالأرجوحة الموجودة في الحديقة العامة التي في نهاية الشارع القابع في وسطه القصر ...

وبخطوات ناعمة وحزينة تسرب سلطان النوم لعيني «ملك»، ومن ثم «رهف».. أما «هدى» الأخت الأكبر فكانت دائمًا تنام ولا تستيقظ حتى الصباح، مهما نادوا عليها أثناء الليل أو سمعت من أصوات.. إلا إذا أيقظتها الخالة؛ لتقضي لها طلبًا.. تقوم مسرعة بلهفة كلبة تبع سيدتها، فقد كانت تطيع الخالة طاعة عمياء فقط لترضيها وتحصل منها على بعض المال لنفسها.. وكانت الخالة سعيدة بولاء «هدى» لها، وتعتبرها يدها اليمنى في القصر لتنفيذ رغباتها الهوجاء حرفيًا ودون نقاش.. وكانت دائمًا تفضلها على «رهف» التي لها شخصية لا تلين لأي ظلم يقع عليها أو على أمها و«ملك» ...

كل شيء كان عذبًا مطمئنًا.. والمكان الذي وجدت «رهف» نفسها به كان أقرب ما يكون من الجنة السماوية الجمال، وكان أبوها وأمها حولها!.. وهي مطمئنة سعيدة تضحك، وكأنها لم تعرف الحزن يومًا، وكأن عينيها الجميلة لم تذرف الدمع الحار الحارق يومًا.. واحتضنتها أمها التي عادت شابة رائعة الحسن، وبدأ والدها الذي كان صغير السن أيضًا، ويرتدي ملابس جميلة الصنع والرائحة ولكن لا تشبه ملابسه التي كانت تعرفها «رهف»

قطعة قطعة، يطعمها ألذ أنواع الفاكهة، التي ذاقتها يومًا أو لم تفعل.. وهي فرحة لا تصدق.. كان في يد والدها طبق فضي به عنب وكرز وتوت.. لهم مذاق يبهج القلب والروح.. وأكلت وأكلت.. ولكنها لم تشبع من حلاوة ما تأكله ...

ثم شاهدت زهورًا تضيء بألوان مبهجة.. فهمت من أحضان أمها لتقترب من منظر تلك الزهور البديعة، فتظهر أمامها امرأة.. بهية الملامح.. طويلة الشعر.. ناعمة البشرة.. كل شيء بها ينطق باسم الجمال الذي ليس بعده جمال، وخلفها رجال، غير ظاهرة ملامحهم، ولكن أجسادهم قصيرة وغليظة القوام، فيأخذون تلك المرأة الحسناء، دون أدنى مقاومة تذكر منها، ويضعونها في آلة.. وكأنها مقصلة، ولكن ليست مقصلة تقطع الرقبة، بل تقطع الوجه فقط!!!

و»رهف».. تشاهد مرعوبة، مقطوعة الأنفاس، ما يحدث أمام عينيها.. وفجأة تظهر تلك المرأة من خلف الآلة، وقد قطع فعلاً وجهها.. ولكن لم يكن هناك دماء أو حتى ظهرت العظام والأوردة التي خلف الوجه، بل صار وجه تلك السيدة ككف اليد.. فقط بلا ملامح.. صار قطعة لحم بيضاء بلا ملامح.. كدنيا قاسية بلا ملامح.. ادعت الحسن يومًا، ثم ظهرت على حقيقتها الموحشة لأهلها الذين خلقوا في كبد ...

استيقظت «رهف» على صوت صرختها، وعدم قدرتها على التنفس؛ لتجد نفسها تتصبب عرقًا في الحجرة دون أختيها، اللتان كانتا تناما معها في نفس الحجرة ...

يناير.. لعام ٢٠١١.. القاهرة!

الليلة باردة الحال كعادة ليالي «يناير» على المنكسرة قلوبهم.. ولكن الخالة تجلس هناك بجانب مدفأة حجرة المعيشة الواسعة.. وبجانب قدميها تجلس «هدى» ككلب يمثل الوفاء.. وهو ذئب شرس.. ينتظر أي طلب من سيده، حتى يتقرب إليه أكثر، وينال رضائه الذي يترجم في صورة هدايا بسيطة مثل فستان قديم للخالة أو بضع جنيهات.. وكلتاهما يشاهدان الأخبار في اهتمام بالغ، فبعض الشباب واقفون كمتظاهرين في «ميدان التحرير».. ويعلنون أنهم لن يغادروا مكانهم ولن يفضوا اجتماعهم سوى بعد تحقيق مطالبهم.. بسبب العديد من المشكلات في المجتمع وأهمها كرامة المواطن المصري المعدومة في بلده، حيث التعذيب في الأقسام ومقار أمن الدولة، وإهانة أي متهم وتعذيبه حتى الموت مثلما حدث مع خالد سعيد وسيد بلال.. وكذلك الفقر والبطالة وانتشار الجهل والغلاء وتدهور الحالة الصحية والفساد الإداري...

«رهف».. كانت تشاهد الأخبار من التلفزيون القديم الصغير الموجود في الحجرة التي تنام بها مع أختيها، رغم تعدد حجرات القصر وصغر حجم الحجرة، فالخالة رفضت منحهن حجرة أخرى أوسع.. بحجة أنها أحيانًا تستقبل بعض الضيوف.. وهذا نادرًا ما يحدث.. ولكنها حجة عقيمة تسد خانة الإجابة ...

ومر اليوم.. دون أن يلتفت سكان القصر الأربعة للضجيج الذي يعم البلاد.. وكأن قصرهم دولة أخرى داخل الدولة.. دولة يسودها أيضًا الفساد والاستعباد.. وسيطرة بعض القوى وحدها على المال والسلطة ...

بعد يومين من بداية تلك المظاهرات.. استمرت الاحتجاجات على نطاق واسع وغير متوقع في القاهرة والمدن المصرية.. في صباح «جمعة الغضب» قام نظام مبارك.. وهو النظام الحاكم.. بقطع وسائل الاتصالات اللاسلكية، الهاتف المحمول والإنترنت؛ لمنع تنظيم المظاهرات وتواصل الجماهير الغاضبة، ورغم ذلك خرجت مئات الآلاف من مختلف المساجد عقب صلاة الجمعة متجهين صوب ميدان التحرير، فضلاً عن العديد من المدن الأخرى ...

في مشاهد لم يسبق لها مثيل، اشتبكت الشرطة مع آلاف المصريين الذين رفضوا مغادرة ميدان التحرير إمعانًا في الاحتجاج على حكم مبارك، حيث استخدمت العصي وقنابل الغاز والقنابل المسيلة للدموع وخراطيم المياه لتفريق المتظاهرين.. وانتهى الحال بدلاً من انسحاب المتظاهرين بانسحاب الشرطة من المواجهة المباشرة مع الحدث ...

وجاء تخلي مبارك عن منصبه كرئيس للبلاد.. كحدث جلل.. عاصف النتائج بنظام البلاد، وعمت الفوضى الخلاقة التي كانت تخطط لها بعض القوى الطامعة في البلاد.. فقانون الغابة دائمًا يسود في حالة غياب القانون والعدالة.. والآن اختفت الشرطة من الصورة.. وبدأ التيار الكهربائي ينقطع أحيانًا في بعض المدن البعيدة عن العاصمة.. القاهرة ...

«من رحمة الله بنا ضعف أبصارنا على مر الزمان.. فلو استمررنا نرى الأشياء بنفس الوضوح لمتنا قرفًا من حالنا الذي يزداد سوءًا كل طرفة عين".

تذكرت «رهف».. تلك الكلمات التي قالتها لها أمها يومًا عندما بدأ نظرها يضعف ولم تمتلك ثمن عمل نظارة طبية.. حتى ترى أفضل.. فحال البلاد صار الآن لا يسر سوى الأعداء...

هناك آلة صغيرة في الدور الأرضي للبيت، تستخدم لتوليد الكهرباء في حالة انقطاع التيار الكهربائي عن القصر.. وتلك الآلة الإنسان الوحيد في البيت الذي يعرف كيف يجعلها تعمل هي «رهف».. طالبة كلية الهندسة قسم ميكانيكا بالسنة الثانية؛ ولذلك تعودت خالتها أن تطلب منها تشغيلها وإصلاحها عندما تتعطل.. ولكن تلك الليلة انقطع التيار الكهربائي.. وعندما همت رهف بمحاولة تشغليها، أعلنت المكينة عصيانها، ورفضت العودة لدورها وكأنها تعلن حاجتها للموت والراحة.. فهي آلة قديمة وقد اشترتها الخالة من صاحبها مستعملة لعدة أعوام.. ويبدو أن العمر الافتراضي للآلة قد انتهى ...

بذلت رهف مجهودًا غير عادي في محاولة إصلاح الآلة.. ولكن المستحيل أن تحيي ميتًا.. بعد أن مات وشبع موت وتحللت جثته المتآكلة العظام ...

وصرخت الخالة في وجه رهف الجميل واتهمتها بالفشل وتهكمت عليها وعلى كونها مهندسة فاشلة في إصلاح مجرد آلة بسيطة.. وحقرت من شأنها.. وأخبرتها في ابتسامة عقربية الشكل أنها كأمها.. لا يمكنها أن تفلح في شيء.. وأنها كالعبد الأحمق الذي كلما وجهه سيده لوجهة لا يأتي بخير أبدًا، وسكتت رهف، ولم تدافع عن نفسها كعادتها.. ولم تتألم حتى لكلمات الخالة؛

لأنها تعودتها منها.. وذهبت الخالة لتنام.. في الظلام.. وخرجت رهف تسير في الحديقة الصغيرة المحيطة بالبيت.. وفجأة وجدت قدميها تأخذها لحجرة خالتها!!!

وفي طريقها ألقت نظرة سريعة على أختيها «هدى وملك».. ووجدت النوم قد غلفهما برحمة الغياب عن دنيا حالها مؤلم لكل أهلها، فصعدت على أطراف أصابعها إلى الدور الثاني من الفيلا الواسعة.. حيث حجرة الخالة.. ودخلت الحجرة بهدوء نمر قبل الانقضاض على فريسة يكرها.. يريد قتلها شر قتلة قبل أكلها...

لم تشعر الخالة بدخول رهف عليها الحجرة لأنها معتادة تناول أقراص منومة شديدة المفعول قبل النوم ...

كانت هناك أكثر من شمعة مشتعلة لتنير الحجرة الواسعة حول سرير الخالة الذي تنام عليه.. يحمل تلك الشمعات أشكال متعددة من الشمعدان النحاسي والفضي.. كان على الشمعدان بعض الرسوم لرجال ونساء وكذلك أطفال.. ولكن لاحظت رهف شيئًا واحدًا مشترك بين تلك الرسوم.. نظرات الأعين التي تخص الشخصيات المرسومة كلها، تحمل نظرات توسل.. ونظرات خضوع لعذاب في حتمية القدر ...

وبمرارة تسكن كل خلية محمومة من جسدها وروحها.. وقفت تلهو عابثة بالشمعات المشتعلة.. وهي تتمنى من كل قلبها أن تحرق خالتها القاسية بها.. ظلت تلعب وتطفئ شمعة ثم تشعلها من أخرى.. حتى وقعت من يدها شمعة على الأرض.. بجوار طرف «الملاءة» الخاصة بسرير الخالة.. ولم تدرِ رهف إلا وهي تمسك شمعة وتشعل كل جزء في حجرة خالتها من الستائر الزرقاء الحريرية التي اشتعلت في لحظة إلى مفرش سريرها، إلى مفرش المنضدة التي كانت تجاور السرير وعليها تلفاز كبير ...

كل شيء اشتعل في لحظة.. وعندما صدحت ألسنة النار في الحجرة، كوحش ضارٍ سيبتلع أي شيء في طريقه خرجت رهف مسرعة للدور الأول وأحكمت إغلاق باب الحجرة خلفها.. وخاصة أن الخالة بدأت تتململ في نومتها وتسعل من كثرة الدخان الناتج من احتراق الحجرة بها ...

لم يهمها سوى «ملك».. فدخلت الحجرة حيث تنام وحملتها وهي نائمة، ورغم ثقل وزن ملك عليها.. حملتها بمنتهى الرفق والحنان.. وخرجت بها إلى طرف خفي في حديقة الفيلا تراقب في صمت احتراق حجرة خالتها.. والخالة نائمة بها.. وتركت هدى مكانها دون أن تهتم لأمرها.. فهي لو أيقظت أختها، قد تحاول إنقاذ الخالة.. وتفسد كل ما فعلته بغبائها ...

كانت سعيدة وكأنها انتصرت في ألف حرب، وخاصة عندما لمحت من شباك الحجرة خالتها وهي تصرخ.. وتسير داخل الحجرة والنار مشتعلة بها، في محاولة يائسة منها على ما يبدو؛ لمقاومة الاحتراق والاختناق والموت الذي اقترب منها للغاية.. ولكنها ظلت مكانها حاملة «ملك»، وهي تغني لها وتهدهدها، وتعدها بغد أفضل ...

وأخيرًا.. شموع القصر، أحرقت صاحبه !!!

فهي.. شموع شامخة النور والنار.. برد وسلام على المظلوم.. والجحيم نفسه لقاتل الأرواح الطاهرة.

●●●

obeikan.com

obeikan.com

٢-شجرة الحجيم

أكد تقرير الطبيب الشرعي وقتها أن الخالة ماتت مختنقة بغاز ثاني أوكسيد الكربون.. وليس نتيجة الحروق التي كانت في جسدها، فقد نهشت النار لحمها وبعض عظامها، كذئب ضارٍ، فمن الواضح أنها كانت تحمل بين أضلعها وبجانب قلبها الأسود القاسي جهاز تنفسي مريض، لم يحتمل الدخان الكثيف الناتج من احتراق مفروشات الغرفة الحريرية.. وقفلت القضية على أنها قضاء وقدر، فقد اجتمع بعض الجيران وحراس العقارات المجاورة وبعض اللجان الشعبية التي انتشرت وقتها في شوراع القاهرة لحماية الأهالي من السرقة والحوادث، بعد انسحاب قوات الشرطة من خدمة حماية المواطنين.. والجميع اجتهد في إطفاء الحريق ومحاولة الإنقاد.. ولكن الخالة ماتت ونجا الثلاث بنات.. ولم تتأثر باقي حجرات القصر بالحريق كثيرًا.. أو يكاد يكون التأثير معدومًا...

لم ترَ رهف دمعة حزن واحدة في عيني هدى على موت الخالة.. إلا أمام الناس وهي تتلقى العزاء وتمثل البكاء الحار من فرقة الخالة الغالية ...

ونظـرًا لعـدم وجـود أقـارب آخريـن للخالـة يسـتحقون الإرث تصبـح هـي وأختاهـا.. وريثـي القصـر ...

ويوم علم الثلاث فتيات بذلك.. رقصن بعد انصراف المحامي الـذي أكـد لهـن صحـة حقهـن وحدهـن في الإرث حتـى الصبـاح حافيـات الأقـدام في بهـو القصـر.. فرحًـا.. لقـد أصبـح القصـر لهـن وحدهـن، بيـت.. وليس أي بيـت، إنـه قصـر.. بأكملـه لهـن.. سـيصبح لـكل واحـدة منهـن غرفـة واسـعة مسـتقلة لهـا.. ويمكنهـن اسـتقبال صديقاتهـن والتباهـي أمامهـن بقصرهـن الفسـيح ...

ولكـن رهـف كان شـعورها أقـوى.. فهـي تعـودت طفولـة بهـا رفـض الآخريـن لهـا والتشـرد وعـدم الطمأنينـة والطـرد مـن كل مـكان تذهـب إليـه، وكأنهـا كائـن غيـر مرغـوب في وجـوده علـى سـطح كوكـب الأرض، فقـد كانـت أمنيـة حيـاة «زينـب»- أمهـن- فقـط شـقة صغيـرة حجرتـين وصالـة في أي حـي شـعبي ولـو متواضـع مـن أحيـاء القاهـرة.. والآن، أصبحـت رهـف.. تسـكن في قصـر.. حصلـت عليـه بمجهودهـا.. كمـا تصـورت.. ولـم تنـدم لحظـة علـى قتلهـا الخالـة.. أو ربمـا لـم يخطـر علـى بالهـا فكـرة النـدم.. فعلاقتهـا بالسـماء علاقـة عطـش بمـاء البحـر المالـح.. لا يخطـر علـى بالـه عندمـا يشـتهي الشـراب.. هـي لـم تصـلِّ يومًـا.. وإن كانـت تصـوم رمضـان كامـلاً.. وكأنـه تقليـد أو طقـس عائلـي لا تفهمـه ولـم تسـعَ لفهـم الغـرض الروحـي منـه، يمـارس في شـهر مـن السـنة ...

والعجيب أن «رهف».. عادت تقبل على مذاكرة دروسها في الجامعة بمنتهى النهم للعلم والتفوق.. ومن أول يوم بدأت إلقاء التعليمات على «هدى».. فكان تنظيف القصر مسئولية تلك الأخت الكبيرة وحدها.. أما هي فكانت مسئوليتها إعداد الطعام والعناية بكل ما يخص «ملك».. فالأخت الصغرى تحتاج من يهتم بمذاكرة الدروس التي تتلقاها في مدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة التي أصرت رهف على بقائها بها بعد موت الأم، ورغم معارضة الخالة وهدى.. وحتى إطعام ملك ونظافتها الشخصية كان مسئولية رهف، فإن قست رهف على الكون بأكمله، كانت تمنح ملك كل الحنان والرحمة والرفاهية.. وتفضل سعادتها وراحتها حتى على نفسها.. ولم يكن هناك إنسان على وجه الأرض يثير شفقتها سوى هي ...

وجاء يوم اكتشفت فيه رهف أنه لا يوجد في البيت أي مال أو طعام أو شراب.. ونظرت الثلاث أخوات لبعضهن البعض بقلة حيلة، رهف بعينيها الواسعة الجميلة التي تميل للخضرة عندما تغضب.. وتعود للدرجة الرمادية عندما تستقر أحوالها النفسية.. وهدى بعينها البنية الضيقة.. وملك عسلية العيون.. التي لها نظرات ملاك بريء نزل الأرض خطأ في أجازة من الجنة.. إلى أن قررت رهف فعل ما فعلته وجلب لها بيت.. يجب أن تقتل مرة أخرى لتحصل على المال !!!

لم تفكر في العمل.. فكلية الهندسة التي لازالت طالبة بها عبء الدراسة بها وحده لا يتحمله الكثير من الطلاب، الذين التحقوا بها والبعض يحول لكلية أخرى بمجرد اكتشافه مدى صعوبة المواد الدراسية في السنة الأولى، فكيف بعمل بجانب ذلك العبء؟!.. ولم تفكر في الاقتراض من أحدهم، أولاً: لأنها لا تعرف شخصًا قد يقرضها. ثانيًا: وحتى لو وجدت ذلك الشخص الكريم، من أين سترد له هذا الدين؟! حتى أن استمرار المظاهرات وأحوال البلاد الغير مستقرة سياسيًا، تسببت في كساد الحالة الاقتصادية.. وعم الخراب في الشوارع والميادين محل الاحتجاجات والمظاهرات.. وارتفعت نسبة البطالة بين الشباب والرجال وأغلقت بعض المصانع والشركات ...

مطبخ القصر كان عاريًا تمامًا من أي شيء يصلح للأكل.. ولذا عندما عصف الجوع بمعدة ملك.. فتشت هدى عن أي شيء تطعم به أختها الصغرى.. ولم تجد سوى بعض «الدقيق».. ولم تجد حتى «زيت أو سمن».. لتصنع لها فطيرة صغيرة.. بالكاد قد تشبعها.. وانتهى الأمر لإسكات بكاء الصغيرة جوعًا.. أن صنعت لها شيئًا غريبًا من الدقيق والماء والملح فقط.. شيء لا هو فطيرة ولا هو حتى نوع من الخبز!!!.. ومن شدة جوع ملك أكلته ساخنًا.. وكلاً من أختيها يراقبنها بأسى على حالهن.. ودموع

حبيسة القلوب.. كانت درجة الحرارة منخفضة جداً.. كحال الشتاء عند الفقراء.. مما زاد من شعور الفتيات بالجوع والفقر والقهر.. وخاصة مع موت اليد الوحيدة التي كانت تحنو عليهن.. فبعد الأم.. الحال.. غم !!!

وقتها.. لم يخطر على بالها سوى القتل.. فداخلها طاقة سوداء باتت تعشق القتل.. وتستمتع بإذلال من ذلها يوماً أو ذل آخرين في محيطها.. لقد باتت تكره الناس.. تكره تلك الحجارة التي تسكن صدورهم على أنها قلوب.. وتلك الخديعة التي تجري على ألسنتهم على أنها حقائق والصدق بعينه، وتكره من الرجل كل الأنانية التي تبيح له جسد كل امرأة يقابلها.. إما بالتحرش وإما بالطريق الذي يدعون طهره.. الزواج.. فهي تعرف عن «النبي» صلى الله عليه وسلم.. أنه لم يتزوج ولا امرأة من زوجاته بغرض الشهوة.. كما يفعل رجال اليوم بغرض تطبيق الشريعة.. التي نسوا منها كل شيء.. سوى تعدد الزوجات !!!

فالرجل الشرقي.. يعرف أن الملائكة تلعن زوجته حتى الصباح إذا نام وهو غاضب منها أو لأنها رفضت معاشرته، ولكنه ينسى ويجهل متعمداً أن الملائكة تلعنه إذا كان سبب دموع أنثى.. لا حول لها ولا قوة.. وما أبشع اللعن فهو الخروج من الرحمة ...

وجمعت معلوماتها واختارت ضحيتها بدقة.. ضحية تملك سيارة غالية وحساب «بالفيزا كارت»، وفي يده ساعة ماسية تساوي الكثير وهاتف محمول يساوي الكثير وجهاز كمبيوتر لا يفارقه أيضًا يساوي الكثير ...

"إذا قبلت أن تكون حملاً، فلا تبكي إذا أكلك الذئب".

وصار هذا شعار «رهف».. بل ودستور حياتها !

ولكنها لم تعد حملاً.. بل صارت مستذئبة تعيش على دماء ضحاياها الذين تختارهم بعناية.. وشبق لرؤيتهم قتلة تحت قدميها .

«اعشق الناس» فقط.. عندما يبدأون في التوسل لي.. هيا توسل.. هيا اطلب الرحمة.. أسمعني صوتك.. أرني دموعك....."

هكذا قالت له.. وابتسمت ابتسامة شيطانية، لا تتناسب مع جمال ملامح وجهها، وهي تنزع عن فمه الشريط اللاصق الذي كان عليه، والذي كان دوره منعه من إصدار أي صوت حيث كانت تقيده بإحكام على كرسي حديدي مثبت في مكانه في الدور النصف مدفون تحت الأرض من القصر بطريقة تعجزه عن محاولة الخلاص أو الهرب منها ومن تعذيبها له، فهي تحبسه وتقيده في مكانه منذ ثلاثة أيام دون طعام أو شراب.. والآن، ستقتله بلا رحمة أو شفقة ...

فهو أستاذها في كلية هندسة، استدركته لقصرها الملعون بحجة طمعها في المزيد من الشرح لدروسها مقابل حفنة عظيمة من المال وعدته بها، ولكنها لم تفِ؛ لأنها لا تملك ولكنها طبعًا ادعت غير ذلك أمامه، ووعدته بأخذ كل حقوقه مباشرة بعد إعطائها الدرس في بيتها، ولن تفي طبعًا لأنها تخطط لتأخذ منه كل ما تستطيع حتى حياته.. ولأنه يحب الفتيات الصغيرات الجميلات كعينيه ويجيد خداعهن.. بقناعه المعسول الذي يضعه على وجهه لضحيته حتى يصل لها ويحكم سيطرته الجهنمية حولها، ثم يحولها لامرأة ضائعة ويذهب لغيرها.. وافق بلا مقاومة كبيرة ...

وهو رجل متوسط الطول، بدين قليلاً.. وقد أربد وجهه الخمري، حاد الملامح من الخوف.. وتبول على نفسه عدة مرات هلعًا ومات نفسيًا من الموقف الرهيب وكأنه يشاهد فيلمًا شديد الرعب محكم الحبكة الدرامية.. وهو الذي عرف عنه علاقاته النسائية المتعددة والغير شريفة، ومؤخرًا عرف عنه زواجه عرفيًا من إحدى طالباته الفقيرات.. برغم أنه متزوج وله أولاد، وعندما حملت الفتاة منه أنكر الزواج ومزق عقد الزواج العرفي، وسعى بكل الطرق حتى فصلت البنت من الكلية وضاع مستقبلها للأبد بعد الفضيحة التي تسبب بها لها.. ولكن أهم أسباب قتلها له-

دون أن يرمش لها جفن- محاولته التحرش بها عندما دخلت عليه مكتبه في الجامعة لتسأله عن شيء في المنهج الدراسي.. لقد عرفت نقطة ضعفه واستغلتها ..

"رهف»، اسم رقيق لا يدل مطلقًا على قسوة قلبها التي تخبئها خلف هدوئها وابتسامتها الناعمة كابتسامة حية سامة.. وسط توسلاته لها ودموعه طعنته بخنجرها الحاد في قلبه مباشرة، فمات على الفور، فابتسمت بوحشية بعد أن تأكدت أن روحه فارقت جسده إلى الأبد ...

هي لم تطلب مساعدة «هدى» أختها في شيء، لقد قامت بكل جريمة القتل وحدها وقالت لأختها :

"إن كنتِ تريدين مالاً وفيرًا وطعامًا جيدًا وفساتين جديدة، فقط عليك البقاء في حجرتك حتى الصباح ولا تخرجي منها مهما حدث خارجها أو سمعتي من أصوات.. ومن اليوم لا تسأليني عن شيء.. ولا تفتحي باب قبو القصر.. فأنا أخزن به أشياء تخصني وحدي.. وتجلب لنا المال.. هل اتفقنا أختي العزيزة؟؟؟ ....."

وأومأت «هدى» برأسها موافقة، فهي تثق برهف إذا قالت أنها ستجلب المال وتنقلهم لحياة أفضل.. وخاصة أن هدى تحتاج مالاً من أي مصدر لترتدي ملابس تظهر حسنها الذي كاد أن

يطمسه الفقر المدقع الذي عانوا منه طوال سنوات.. وهي تحلم بشاب راقٍ من أسرة غنية يقع في حبها ويتزوجها.. ويبعدها عن الفقر للأبد ...

حيلة وضع المخدر في العصير لتخدير الضحية- كلاسيكية جدًا- ولكن رهف لجأت إليها؛ لتفقد ضحيتها وعيها.. حتى تصحبه لمكان احتجازه وتأخذ منه ما تريد بعد أن حملته على كرسي طبي متحرك إلى حيث تريد.. ذلك الكرسي المتحرك الذي استعمله والدها عندما كسرت ساقيه ذات يوم.. واضطر لاستعماله لمدة شهرين، وكانت هي من يدفعه بصبر وحنان، بذلك الكرسي المتحرك إلى حيث يريد، بعد أن تملصت الخالة من الاعتناء به.. رغم أنه كان زوجها وقتها ...

أخذت من كارت «الفيزا» الذي كان يحمله كل المال الذي وجدته في حسابه المصرفي من ماكينات الصرف الألي الموجودة بالشوارع، بعد أن أجبرته على البوح لها بالرقم السري الخاص بحسابه على أمل أن تتركه ينجو بحياته، ولكنها أخذت المال ثم قتلته ودفنته سعيدة في قبو القصر في حفرة عميقة.. لقد وضعت بالحفرة الكثير من أسمنت البناء.. ثم وضعت الجثة.. ووضعت عليها مرة أخرى أسمنتًا.. حتى غطت الجثة تمامًا بالأسمنت.. وشكلت ما حولها على أنه تابوت أسمنتي للجثة.. ثم غطت

التابوت الأسمنتي الموجود داخل الحفرة والموجودة به الجثة بالكثير من التراب.. وتلك كانت طريقتها في الدفن.. حتى تضمن عدم خروج رائحة للجثة إذا تحللت ...

حتى سيارته، قامت بفكها وبيعها، فهي تعلمت الكثير عن السيارات وخاصة وأنها طالبة بقسم «الميكانيكا» بكلية الهندسة، وهناك عصابة صغيرة من عدة شباب وجدتهم على «الإنترنت».. ساعدوها في ربح بعض المال من بيع أجزاء السيارة المفككة.. وبيع باقي المسروقات بسعر معقول...

صرخات مدوية خرجت منها، وشعرت بروحها كأنها أسلاك شائكة عالقة بشيء صوفي خشن هو جسدها، وأحدهم بشع الوجه، مهيب البنيان، رخيم الصوت يحاول نزع تلك الأسلاك، وهو يصب عليها غليظ اللعنات، فتتفرق روحها في زوايا بدنها خوفًا وهلعًا، ويتألم جسدها شديد الألم، ويخرس صوتها، وتجد نفسها بصدمة متوقعة، تقف تحت الشجرة الملعونة، شجرة الجحيم.. التي ثمرها رءوس الشياطين، وتخرج منها روائح كريهة شتى، حتى الأرض التي كانت تقف عليها كانت تغلي من تحت أقدامها، وكأنها براكين الكون مجتمعة قد ثارت غاضبة في عنفوان.. كل شيء حولها كان ملعونًا.. ينذر بعذاب لا نهاية له ولا طاقة لها به أو لأي بشري ويضيق صدرها حتى بوجود ضلوعها به ...

ثم أخيرًا استيقظت مفزوعة كالعادة من هذا الكابوس الرهيب، فكل مرة تقتل فيها، ترى هذا الحلم- بمجرد أن «تغمض عينيها»- ترى نفسها في الجحيم ذاته، ولكن ألم تكن حياتها السابقة الحجيم ذاته؟؟ عندما تركهن أبوهن- هي وأختيها- وطلق أمهن، وتزوج خالتهما الثرية التي بعد أن مات أبوهن، أحضرتهن الأربع للعمل في قصرها الكبير كخدم...

وموت أمها حسرة.. بعد ضرب أختها لها بالقلم أمام الناس لأنها أوقعت كأس العصير على ثيابها دون قصد من كثرة التعب من العمل...

ولكنها الآن.. ورثت هذه الفيلا عنها، وسيارة صغيرة وبعض المال الذي لم يكفها كثيرًا هي وأختيها، حتى بدأت تقتل للحصول على ما تريد.. فهي لن تعمل، لقد تذوقت في حياتها من ذل ومهانة من عملها كخادمة في بيت خالتها هي وأمها وأختيها ما يكفيها ما تبقى من حياتها؛ ولذلك رأت قتل الناس أسهل عمل تقوم به؛ للحصول على المال.. لتشفي الغل الذي يكبر بداخل صدرها يومًا بعد يوم...

في اليوم التالي.. كان من المستحيل أن يشك أحد من زملائها في الكلية، أن تلك الشابة ذات الملامح الجسدية الوديعة، ما هي إلا قاتلة، تقتل من أجل المال واللذة بمتعة الانتقام من البشر...

واستمرت الظروف السياسية للبلاد في حالة اضطراب شديد، وكانت الحكومات تتوالى.. وكرسي العرش خالٍ يبحث عن رجل شهم يحمله، يخلص البلاد من المأساة التي تجتاح البلاد.. يبحث عن مصري بمواصفات نبي، يحمل السلام لوطن تحمل الفساد ثلاثون عامًا على التوالي.. كمرض خبيث سيطر على جسده وأرواح شعبه.. فالفساد عندما يعم، ويصبح الظلم هو الصوت المسموع، تتشوه بالتدريج شخصية أبناء هذا الوطن، وخاصة مع إهمال النظام الحاكم للتعليم والصحة ونشر مفاهيم الدين الصحيحة المتسامحة...

وكانت ضحيتها التالية...

شخصية الكل يراها شخصية طيبة وديعة محبة للجميع.. ولكنه نفس الطبيب العاشق للمال الذي رفض علاج أختها ملك ومتابعة تطورات حالتها الصحية؛ لعدم قدرة الأم تحمل نفقات العلاج في عيادته، ورغم توسلات الأم.. لم يعير ذلك الطبيب حالة ملك أي اهتمام كطبيب أو كإنسان.. وتنفس ذلك الطبيب الصعداء عندما خرجت الأم من العيادة وابتعد صوت توسلاتها عنه للأبد بعد أن أمر الممرضات بإخراجها من حجرته، ثم من العيادة ثم إلى الشارع بالقوة، دون شفقة أو رحمة.. وعاملها وكأنها كلب أجرب، وليست أم تتوسل لتبقي ابنتها على قيد الحياة.. وخاصة

أن ملك منذ ولادتها كانت تعاني ضعفًا جسمانيًا شديدًا ومشكلات بالقلب والرئة ...

المال الذي جمعته رهف من قتلها أستاذها في الجامعة وصل لآلاف الجنيهات.. فاشترت لأختيها الكثير من الأشياء من ملابس وأحذية وغيرهم.. ثم اشترت ما يكفي البيت من طعام وشراب لمدة شهر كامل، واشترت لأختها هدى قلادة ذهبية، ولملك مثلها وطلبت من الصائغ وضع صورة الأم بكل قلادة.. أما عن نفسها فقد اكتفت بثياب جديدة وحاسب آلي جديد متطور «آيباد».. ليساعدها في المذاكرة والاتصال بالعصابة التي تصرف لها ما تسرق.. وتبيعه نيابة عنها بنسبة أربعين بالمائة من الربح.. لأفراد تلك العصابة.. من قيمة بيع تلك المسروقات ...

يوم تنفيذ الجريمة التالية.. وقفت رهف تتأمل نفسها في المرآة.. نعم هي تعرف أنها جميلة، ولكنها في تلك اللحظة فعلت المستحيل لتكون أجمل.. لمسة رقيقة من الكحل والقليل من أحمر الخدود.. جعلاها إحدى آلهة الجمال الإغريقية.. وقميص حريري أحمر وبنطلون جينز، غامق اللون، وحذاء رياضي خفيف.. كانت تلك الأشياء البسيطة التي أبرزت ملامحها الجسدية الأخاذة.. وكانت قد طلبت من هدى أن تدخل حجرتها عند الساعة التاسعة بعد التأكد من نوم ملك وتبقى بها حتى الصباح مهما حدث أو

سمعت من أصوات.. وفعلت هدى ما أمرت به دون سؤال أو حتى محاولة معرفة ما سيحدث.. فيكفيها دومًا ما تحصل عليه من هدايا ومال في كل مرة تدخل حجرتها طائعة لأمر رهف ...

ساعات حظر التجول التي أعلنت في البلاد كانت تبدأ في التاسعة مساءً وحتى السادسة صباحًا.. ولذلك في الثامنة مساءً وقفت تحت العمارة التي يمتلكها الطبيب الذي تريد قتله.. وبمجرد تأكدها من انصراف الممرضات وذهاب آخر المرضى، صعدت له عيادته ...

وقفت على باب عيادته لحظة.. فقد أرادت تذكر أي شيء حزين يبكيها؛ لتدخل عليه بعيون حمراء باكية؛ لتلهيه بدموعها عن التفكير أو الرفض.. ووجدت نفسها تتذكر ألف شيء في حياتها يوجع القلب.. حتى أنها فوجئت من ذاكرتها التي استدعت لها ذكرة كريهة، عندما كانت في الخامسة من عمرها، وركبت أمها «أتوبيس» عامًا في طريق العودة للبيت من عند الطبيب بها حيث كانت مريضة وحرارتها مرتفعة وكانت أمها تحملها، لعدم قدرتها على الوقوف على قدميها حتى عرض أحد ركاب الحافلة «الأتوبيس» إجلاس رهف على قدميه؛ لترتاح الأم التي لم تجد مكانًا لتجلس به.. ولم يقم لها أحد الرجال الجالسين، ووقفت حاملة طفلتها المريضة.. وهي تمسك هدى بحرص في يدها التي

كانت في السابعة من عمرها حتى لا تذهب بعيداً وتتوه منها.. ووافقت الأم وأعطته طفلتها بعشم وهي تشكره كثيراً بحرارة على طيبة قلبه وشهامته ...

وإذا برهف تجد يدين تخترق حرمة جسدها الصغير المريض وتعبث بجهازها التناسلي الطفولي من تحت فستانها وملابسها الداخلية الرقيقة، وتتحسه في انتهاك سافر.. وقتها شعرت بأن هناك ألف ثعبان ينهشون جسدها الصغير الرقيق.. وأنها تنتهك.. واستمر الرجل الوقح يضايق رهف بتلك الطريقة الحقيرة دقائق طويلة قاتلة لطفولتها، ويعذبها على مهل، وهي حتى لا تعي ما يحدث لها، وهي حتى غير قادرة على الصراخ من شدة مرضها، لقد كانت واعية ولكن في حالة صدمة غير قادرة على النطق، حتى لاحظت هدى ما يحدث دون فهم، سوى ضيق أختها، فطلبت بتوسل من أمها، حمل رهف عن الرجل الشيطاني النزعة.. الذي تحرش واعتدى على طفلة مريضة لا حول لها ولا قوة.. والتي ليس لها حتى جسد ناضج يغريه.. بل هو فقط ربما أحد المختلين المهووسين بالجنس مع الأطفال ...

وبمعجزة نجت رهف من بين براثن ذلك الحيوان البشري ...

دموعها كانت حقيقية.. ووجعها كان غير محتمل.. وهي تتوسل الطبيب الذهاب معها إلى بيتها، فقد ادعت مرض أختها ملك مرضًا شديدًا، وعندما لم تكفِ دموعها لإقناعه بالذهاب معها، أخرجت من جيبها ألف جنيه وأعطتهم له، بنظرة احتقار رمقته بها من طرف خفي من عينيها شرسة الجمال، وذهب معها.. وكونه طبيبًا، جعل نقاط التفتيش التي نشرها الجيش المصري؛ لتطبيق حظر التجوال؛ لضبط الهرج والمرج في البلاد، تسمح لهما بالمرور بسهولة.. مع أنها كانت تحاول إخفاء وجهها عند كل نقطة تفتيش.. فقد كان يقود سيارته وهي بجانبه.. تجلس صامتة اللسان.. ولكن صاخبة الوجدان.. فقد كانت ترتب في رأسها ما ستفعله به.. حتى تأخذ ما يمكنها منه من المال، ثم تحوله لجثة هامدة.. دون فعل أو انفعال ...

في اليوم السابق.. كانت قد أعدت الحفرة التي ستدفنه بها، فقد اختارت له مكانًا شرقيًا في حديقة القصر.. مكان حسدته على أنه سيتم دفنه به، حيث أنه كان بجانب حوض الورد الذي زرعه والدها يومًا، واهتم به أكثر مما اهتم بها هي شخصيًا، هي وأختيها وأمها ...

وبعد فقده الوعي.. نتيجة شربه العصير الذي وضعت عليه الدواء المخدر.. بصقت عليه وهي تأخذ الألف جنيه من جيبه،

هـو وباقـي المـال والمتعلقـات التـي وجدتهـا معـه.. ثـم أخـذت مفتـاح سـيارته وركنتهـا في جـراج القصـر.. لتقـوم بفكهـا علـى مهـل في الغـد.. بعـد أن تنتهـي منـه وتنـام قليـلاً وتسـتعيد عافيتهـا وهدوئهـا النفسـي مـرة أخـرى ...

"ليست كل ضحية بريئة وليس كل قاتل شيطان كامل "...

ففـي اليـوم الثالـث مـن خطفـه قتلتـه بعـد أن أخـذت مـن «الفيـزا كارت» الخاصـة بـه، كل مـا بهـا مـن مـال مـن ماكينـات الصـرف الألـي بالشـارع.. وقبـل أن تقتلـه صفعتـه عـدة مـرات علـى وجهـه حيـث كان مقيـدًا بإحـكام علـى نفـس الكرسـي الحديـدي الـذي تعـودت تعذيـب ضحاياهـا عليـه قبـل ذبحهـم، وهـي تحكـى لـه مـا فعلـه مـع أمهـا.. وعندمـا قـال لهـا خوفًـا منهـا :

"أنا أسف.. من فضلك سامحيني واتركيني أعود بيتي....."

صرخت في وجهه قائلة :

"اعتذارك مقبول في حالة واحدة ....."

فقال لها مسرعًا :

"سـأفعل أي شـيء لتسـامحيني وتتركينـي أذهـب لبيتـي.. صدقًـا أي شـيء».....

فقالت له بابتسامة متهكمة من غبائه لعدم توقعه لما سيحدث له على يديها الرقيقة البيضاء :

"يمكنني أن أعفو عنك.. وأسامحك.. فقط لو قدمت اعتذارك لأمي.. وقلت لها أنك تصرفت معها بوحشية.. وأنك استغليت علمك فقط لكسب المال والبحث عن الشهرة والمجد المزيف ....."

قاطعها باكيًا متوسلاً قائلاً :

"أين هي؟.. وأعدك سأعتذر لها وأقبل رأسها ويدها وحتى قدميها ....."

فاتسعت ابتسامتها وهي تقول له بسخرية شيطانية تبرق في عينيها :

«هي الآن في.. قبرها!!!؛ لذا سأرسلك إليها سريعًا لتعتذر لها وتقبل رأسها ويدها وقدمها.. وأرجوك قل لها أني اشتقت لها كثيرًا.. وأني سأنتقم من كل من أساء لها يومًا».

وفي ثانية طعنته ببساطة في قلبه مباشرة.. فمات.. وهي تتأمله بثبات نفسي عجيب وكأنها تحولت لآلة للقتل.. لا مشاعر لها ولا قلب.. فقط روح غاضبة وعقل ينفذ رغبات شنيعة البشاعة ...

تعودت تسليم المسروقات للمشترين بعيداً عن مكان بيتها.. في مكان هي من يختاره.. وتذهب وهي متنكرة وتضع نظارة شمسية على عينيها، وشعر مستعار أصفر طويل ناعم.. كانت تختار أماكن عامة مزدحمة.. أما السيارات الخاصة بقتلاها.. فكانت تصحبها لمكان بعيد وتتركها به.. ثم تقابل أحد أفراد العصابة وتقول له مكان السيارة، وتأخذ منه المال.. وتبقى معه، حتى يذهب فرد أخر من العصابة ويتأكد من صدق كلامها، فيؤكد بالهاتف للشخص الذي معها إتمام الصفقة، ويتركونها تذهب لحال سبيلها...

تلك العصابات ليست عصابات صغيرة أو حتى محلية.. بل هي عصابات تعمل على مستوى دولي تجمع السيارات من دول أوربا وبعض الدول العربية وتبيعها لدول أفريقية معروفة بعينها...

وكانت دائمًا مستعدة للغدر من العصابات التي تتعامل معها، فهي تعلم أنها تتعامل مع حثالة البشر؛ ولذلك كانت دائمًا توهمهم جميعًا بأنها فرد صغير من عصابة كبيرة، وأنها مراقبة منها طوال الوقت ...

●●●

obeikan.com

٣- «أين ملك؟»

لم تربح كثيرًا.. من قتله كما ربحت من المرة السابقة عندما قتلت الأستاذ الجامعي.. فسيارة الطبيب البخيل كانت قديمة وغير غالية، حتى متعلقاته لم تكن بروعة متعلقات القتيل السابق الذي كان مهووسًا بمظهره الخارجي وملابسه وكان يغدق المال على نفسه؛ ليبدو في منتهى الوجاهة والثراء.. ولكن كان يكفي قلبها التشفي.. وهو يتوسل الرحمة منها وجرعة ماء، لم يحصل عليها.. وهو يتوسل البقاء على قيد الحياة تمامًا كما توسلت أمها له يومًا؛ ليعالج ملك لتبقى على قيد الحياة ...

بعد ليلة ليلاء من الكوابيس المزعجة التي تورث في الجسد إرهاقًا وفي العين تعبًا مؤلمًا؛ لعدم الاستقرار في النوم، فإن كان الجسد نام أقل من القليل، فالروح لم تغفُ ولم تملك الهرب ولو للحظات من عظيم ذنوبها.. أشرقت الشمس على الأبرار والأشرار.. أشرقت على وجه رهف صبي الملامح، منير المحيا.. وأشرقت أيضًا على قصرها الذي بات يحمل في طياته ثلاث حكايات مرعبة لثلاثة أشخاص قتلتهم صبية.. تحمل قلب ذئب غاضب، وعطش للانتقام ...

في السادسة صباحًا كانت تقف وحدها في مطبخ القصر تعد لنفسها كوبًا من القهوة، وكانت لا تزال هدى وملك نائمتين، وقررت رهف في نفسها أن تمنح نفسها اليوم أجازة من كل شيء.. حتى من الذهاب للجامعة والمذاكرة.. وبالرغم من أن امتحاناتها النصف سنوية قد اقتربت، ولكنها كانت مستعدة لها.. ومتحمسة لليوم الذي ستحصل فيه على بكالوريوس الهندسة وتعمل بمركز مرموق وتجني الكثير من المال.. ووقتها.. وقتها فقط، يمكنها التوقف عن متعتها في القتل، ومسامحة من ظلمها أو ظلم أمها.. فهي تشعر في قرارة نفسها أنها تسدي خدمة جليلة لمن تقتله، فهي تخلص روحه من كبير ذنوبها، وأيضًا تأخذ حقها المسلوب منها.. فهي لا تحب المال كثيرًا.. كما قد نتصور.. ولكنها أيضًا تكره كثيرًا حاجتها للمال.. تكره أن تحتاج أختها ملك شيئًا، ولا تحصل عليها ...

ملك.. كم تحبها وتشفق عليها، فهي مريضة ويتيمة ولازالت طفلة.. وحتى لو كبرت لن تستطيع يومًا التمتع بحياة عادية.. لن تتزوج ولن يكون لها أولاد.. ومهما علمتها، ستظل تتصرف كطفلة غير ناضجة السلوك.. والحياة قاسية، والناس لا ترحم.. فالكل يعيش لنفسه.. فالناس من هول الحياة موتى على قيد الحياة.. ولكنهم يبكون ويبتسمون أحيانًا ...

في السابعة أيقظت ملك من نومها؛ لتؤهلها للذهاب للمدرسة.. ألبستها زي المدرسة وبرفق.. وطيبة، تمنحها لملك فقط، مشطت شعرها الناعم الأسود الذي يحمله معظم الأطفال المصابين بمرض الطفل «المنغولي».. ووضعت في شنطة ظهرها التي معتادة رهف حملها عنها حتى تصل عربة المدرسة الكتب والأقلام وبعض الساندويتشات اللذيذة والفاكهة وعلبة عصير؛ لتأكلهم في الفسحة المدرسية مع زملائها ...

وضعت ملك في سيارة المدرسة وودعتها بقبلة على جبينها، ثم دخلت القصر لتجد هدى لازالت نائمة.. فأخرجت من «ثلاجة» القصر الضخمة كيسًا به لحم، وتركته حتى يذوب الثلج من حوله، وتستطيع تقطيعه بسهولة لطهيه.. لقد قررت أن تطهو خضارًا بجانبه لحم وأرز.. فهي اليوم تشعر بحاجتها لطعام مغذٍ وشهي؛ لتعود لها عافيتها بعد ليلة الأمس صاخبة الأحداث ...

كانت تقطع اللحم بساطور حاد النصل، عندما دخلت عليها هدى مطبخ البيت.. وفاجأتها قائلة بنعاس لازال في صوتها وهيئة جسدها النحيل وهي تحاول تمطأطه كقطة عابثة :

"صباح الخير رهف.. لا تتعبي نفسك في الطهو اليوم.. اذهبي أنتِ للمذاكرة؛ فامتحانك اقترب ودعي لي كل العمل، أنا سأتولى

طهي الطعام حتى تنتهي امتحاناتك النصف سنوية بجانب تنظيفي للبيت.. فقط ارتاحي أنتِ، وركزي في مستقبلك، فمستقبلك.. هو مستقبلنا نحن الثلاث.. أنا وأنتِ والمسكينة ملك....."

تعجبت رهف من قول هدى.. وعرضها الكريم بالمساعدة، فهدى لم يهمها يومًا إلا نفسها وراحتها ومصلحتها.. فماذا حدث في الكون من تغيرات؟!.. وابتسمت رهف في نفسها، وتنحت من مكانها لأختها لتعمل مكانها حتى دون كلمة شكر لها.. أو حتى رد لتحية الصباح ...

الغداء كان شهيًا للغاية واستمتع به الجميع.. ولكن بعد تناول الطعام شعرت رهف بالملل وضيق في صدرها.. فهناك شيء هي تريده ولا تعرف ما هو.. فدخلت حجرتها، وارتدت فستانًا قصيرًا بلا أكمام، ضيقًا عند الوسط وارتدت فوقه جاكيت صوفي ناعم القماش زاهي الألوان.. فبدت كأميرة صغيرة، بشعرها الأسود الجامح خلف ظهرها وعينيها الخضراء.. وخرجت من البيت قائدة سيارة خالتها القديمة السوداء «الجيب» إلى بيت صديق من الجامعة، معروف عنه جمع الطلبة في بيته للاحتفال وتعاطي المخدرات.. كانت تريد أن تغرق في المتعة لتنسى همها.. لتنسى آلامها التي صارت غير محتملة.. وكانت تلك المرة الأولى التي تدخل فيها بيت هذا الصديق والأخيرة ...

كل الشباب الموجودين عند هذا الصديق حاولوا التحرش بها.. حتى الشاب صاحب البيت نفسه.. وخاصة وهم مخدرون ويبتسمون لها ابتسامة سخيفة بلهاء.. مما دفعها للشعور بالقرف والذهاب سريعًا عائدة بخيبة أمل كبيرة لبيتها.. لتجد هدى واقفة على باب القصر تندب حظها، وتعلن باكية اختفاء ملك من البيت !!!

صرخت في وجه هدى :

"توقفي عن النحيب واحكِ ما حدث وأين ذهبت ملك.. هيا احكِ ....."

فقالت هدى بفزع وخوف مما ستفعله رهف إذا لم تجد ملك :

"كنت في حجرتي، فدخلت ملك وطلبت مني أن تلهو في حديقة القصر، فسمحت لها بشرط عدم الخروج من البوابة التي توصل للشارع وبعد أقل من ربع ساعة نزلت لأطمئن عليها وعندما لم أجدها، بحثت عنها في كل مكان في القصر والشارع ولم أجدها.. أنا سأجن.. أين ذهبت؟؟؟ "

صبت رهف كل ضيقها وغضبها المحموم على رأس هدى صارخة في وجهها :

"أنت تافهة.. فاشلة.. لا معنى لوجودك في الحياة.. لم تستطيعي رعاية ملك لأقل من ساعتين في غيابي.. فماذا إذا مت؟!.. ستموت معي ملك.. لأنها لن تجد من يرعاها.. اذهبي عني أيتها الغبية.. فالنظر لملامحك الأنانية يستفزني ويرفع ضغطي».....

وتركتها رهف تبتلع إهانتها الشديدة لها، وركبت السيارة وخرجت تبحث عن ملك ...

ساعة ونصف تجوب الشوارع دون جدوى بسير بطيئ بالسيارة في شوارع السادس من أكتوبر الهادئة المستلمة لنعاس الليل.. حتى حل الظلام وسمعت أذان العشاء.. وبدأت تبكي بحرقة على قلة حيلتها.. فهي تخاف الذهاب إلى قسم الشرطة للتبليغ عن اختفاء أختها.. وحتى لو ذهبت فلن يهتموا كثيرًا بالبحث عن الطفلة قبل مرور فترة على غيابها، فنزلت من السيارة ووقفت تنظر للسماء وتخاطب الله للمرة الأولى في حياتها :

" أنا لا أعرفك.. ولا أحبك.. وأنا قاتلة.. ولست نادمة.. وأعلم أن الحجيم مصدري يوم ألقاك.. ولكن ملك، ما ذنبها؟! أنت خلقتها مريضة ويتيمة.. وليس لها سواك ....."

أنزلت عينيها من السماء وانتبهت لخروج المصلين فرادى من زاوية صغيرة للصلاة، كانوا يصلون بها العشاء.. وبعد خروج كل المصلين خرج شاب تقريبًا في الخامسة والعشرين من عمره، كان من الواضح أنه من يصلي بالناس إمامًا.. وفي يده، كان يمسك يد صغيرة بضة.. إنها يد ملك.. التي خرجت من القصر عندما سمعت أذان المغرب؛ لتعرف من أين يأتي صوت الأذان الذي سمعته وهي تلعب.. فخرجت ومشت تبحث عن مصدر الصوت حتى دخلت ذلك المصلى ووقفت تصلي خلف الرجال وتفعل بمنتهى البراءة والفطرة السليمة ما يفعلون ويتقربون به لله ...

ووجدها الشاب وتركها بفرح لبراءتها وطهرها تصلي معهم ثم أجلسها بجانبه بعد الصلاة وجلب لها عصيرًا معلبًا؛ لتشربه على أمل أن يبحث أحد عنها من أهلها.. أو يعرف منها أين بيتها ...

احتضنت ملك دقائق طويلة ثم نهرتها على الخروج من البيت وحدها.. حتى أوشكت أن تبكي الطفلة، ولكنها عادت واحتضنتها ...

لدقيقة شكرت الشاب الذي وجد ملك، والذي كانت ملك تدعوه «حمزة»، وكأنه أصبح صديقها.. ثم حملت أختها ووضعتها في السيارة.. وفي الطريق تذكرت أمها.. ووصيتها لها دائمًا بحماية ملك من كل شيء.. وخاصة من الناس.. فملك ملاك لا يعرف

شيئًا ولن تملك يومًا خبرات تؤهلها لفهم البشر وما قد توسوس به الأنفس ...

في سريرها.. ليلاً.. شعرت رهف بشيء غريب.. شيء غامض مخجل.. شعرت أن جسدها يثور ويطالبها بشيء هي لا تفهمه.. وقاومت.. حتى أنهكتها المقاومة ونامت ...

لفترة شهرين عملت أمها «عاملة» تنظيف في إحدى المدارس الخاصة.. ولكنها تركت العمل سريعًا، فقد كان مدير تلك المدرسة رجلاً سخيفًا يعتقد أنه رجل خفيف الظل، يتهكم على جميع العاملين بالمدرسة ويهينهم بألفاظ جارحة، ولا يمنعه شيء من مد يده على جسد العاملات بالمدرسة بحجة الهزار والاندماج في الحديث، حتى جاء يوم وضرب أمها على مؤخرتها، واعتذر كأنه لم يقصد، وكأن الأمر حدث دون قصد منه، وهنا ثأرت أمها لكرامتها وشرفها، فأهانها وأنكر فعلته.. وطردها من العمل عنده في المدرسة، ورفض بمنتهى البجاحة إعطاءها مستحقاتها المالية.. وعادت الأم يومها وهي تدعو الله بالانتقام لها منه ...

تذكرت رهف تلك القصة المأساوية وشعرت بمرارة تجتاحها.. وقررت الانتقام من ذلك الرجل.. ولم يكن صعب عليها جلب هذا الرجل لقصرها لتقتله.. فقد ادعت.. أن لها أختًا تحتاج بعض

الدروس في الرياضيات.. وأنها تحتاج له، طبعًا مقابل مبلغ كبير من المال، أعماه عن السؤال عن الكثير، مما كان يجب أن يعرفه عن البيت الذي سيدخله ...

المخدر في العصير.. ثم الاحتجاز ثلاثة أيام في بهو القصر دون طعام أو شراب تحت تأثير المخدر مقيدًا تمامًا.. ثم سرقة ممتلكاته التي كانت معه من سيارة وهاتف وساعة وفيزا كارت، تعرف رقمها السري من صاحبها على أمل أن تتركه يذهب.. ثم طعنة مباشرة في القلب.. ثم الدفن في حديقة القصر أو القبو.. تلك صارت مراحل القتل التي تتبعها رهف في التخلص من ضحاياها.. والتي اتبعتها حرفيًا مع ذلك الوغد مدير المدرسة التي كانت تعمل بها أمها ...

وعادت رهف منهكة القوى نفسيًا وجسديًا من جريمتها الرابعة.. فقد بدأت تشعر بكوم من الهم يتراكم على قلبها كلما قتلت حتى أصبح تل هم وحزن ضخم.. وجسدها عاد يطلب ذلك الشيء الغامض الذي لا تفهمه.. وسأترك لكم رهف تحكي عن ذلك الشيء الغامض.. الذي يعذبها.. فهي برغم وحشيتها أصدق مني عندما تحكي عن رغباتها ومطالب جسدها ...

"كنت أريد رجلاً بأي طريقة.. ولكن ليس أي رجل.. فقد كان بداخلي ظمأ لشيء غامض.. شيء مجهول التفسير لدي.. لم يكن الأمر مجرد حاجتي لجنس بين رجل وامرأة.. بل فهمت بعدها أني أريد فقط عناقًا كعناق أبي.. أريد الاختباء بين أحضان رجل يملك أن يحميني حتى من وحشيتي.. من تلذذي بتعذيب النفوس وقتلها ...

لا أنكر أني أكره الرجال.. وأرى فيهم كائنات قبيحة الشكل وغبية العقل.. وضعيفة الإرادة إما غواية أي امرأة.. سواء غواية جمال أو مال- كأبي الذي ترك أمي أم بناته- فقط للتمتع بحياة أفضل.. كما كان معتقدًا كنتيجة لثمرة زواجه من خالتي.. ولكن تبقى بداخلي غريزة لعينة.. غريزة تأكلني.. أكلاً.. إني أريد مضاجعة رجل.. بدون ارتباط.. بدون التزام.. بدون أن أكون ملزمة برؤية وجهه الكريه كل صباح من حياتي.. حتى أكره حياتي ...

بدون أن أحمل أطفاله، ثم يتركني ويذهب، وأحمل أنا همهم ما تبقى من حياتي من طعام لشراب لتربية لصحة وتعليم لألف شيء تتطلبه العناية بأطفال، وفي النهاية يكونون أطفاله هو، ويحملون اسمه هو في شهادات ميلادهم، وكل الناس تناديهم كشيء يخصه.. وحده.. وأنا التي حملت وأنجبت وربت وتحملت واحتملت.. مجرد أم.. سيخجل أولادي في مجتمعهم الشرقي

المتخلف الذكوري ذكر اسمي كعورة من عوراتهم التي يخفونها عن الأعين والأذان ...

كل شيء فعلته لتذهب عني تلك الرغبة الهمجية السخيفة بحاجتي الشرسة لرجل.. كل شيء.. حتى أني حاولت إقناع نفسي بأني شاذة أميل للفتيات.. وأحبهن بدلاً من ميلي الطبيعي للرجال كفتاة شابة.. لها جسد متمرد، يفور ثورة ويحتج ويعلن في صخب أني أريد أن أتحول لامرأة على يد رجل.. ولكن المستحيل أن أسمح لكائن بغباء الرجل أن يلمسني.. أن يعكر صفو نظرتي الدنية لذلك الجنس الذكوري الأناني.. مستحيل أن أكون كأمي مجرد دمية جميلة ينتهي دورها عندما ينتهي الغرض منها.. نعم، أنا لا أكره أبي، ولكني أكره الرجال الذين يفكرون مثله.. أكره قسوتهم عندما يهجرون امرأة أخذت منهم ميثاقًا غليظًا وسلمت جسدها وعمرها وشبابها والأهم قلبها لرجل باسم الحب والزواج.. ثم هو يهجرها مع ظهور أولى الشعيرات البيضاء في رأسها؛ لأنه وجد الأفضل.. فأنا عندما أقتل رجلاً، أقتله لسببين.. أولاً: تلك سعادة لي لا توصف، وكأني أنتقم لأمي.. من الذكورية الطفولية الأنانية التي تحتل نفس الرجل بصفة عامة. ثانيًا: أنا أريد فعلاً التخلص من أكبر قدر ممكن من جنس الرجل على سطح كوكب الأرض.. فأنا أتمنى أن يأتي يوم وتتوقف فيه النساء عن ارتداء الحجاب

عند الخروج من بيوتهن؛ لأنه لم يعد هناك رجال ليضايقهن ويضيقوا عليهن.. كم أحلم بشارع نظيف من الرجال تسير فيه النساء بفساتين قصيرة مع كامل تبرجهن وتعطرهن.. كم أحلم وأتمنى.. تلك لوحة في ذهني، كم أتمنى أن أراها حية ...

كم كنت أتمنى لو يمكنني الزواج بامرأة.. نعم، امرأة وليس رجلاً.. فعندما أعود من عملي متعبة سأجدها في كامل زينتها تستقبلني كطفلها المدلل وتقدم لي الكثير من الطعام والحنان.. أما لو تزوجت رجلاً.. فسأعود من عملي ليخلد هو للراحة في انتظار ترتيبي للبيت وإعدادي للطعام.. الذي قد يعجبه فيأكله دون كلمة شكر أو لا يعجبه فينهرني وكأني أقل من خادمة !!

وفعلاً جلبت للقصر فتاة معى من الجامعة، هي فتاة روسية تعيش في مصر، تكبرنى بعامين؛ تحديدًا من أب روسي وأم مصرية، ومعروف عنها أنها شاذة جنسيًا، وأخذتها لحجرتي بعد تناول العشاء مع أخواتي «هدى وملك» بحجة المذاكرة، وحاولت معها وحاولت معي.. ولكني لم أندمج ولم أستمتع.. بل شعرت بشيء غريب.. شعرت بالقرف.. ولكني لم أشعر أبدًا بالذنب.. بل كنت لطيفة جدًا مع الفتاة وحاولت إسعادها بتنفيذ كل ما طلبته؛ لتحصل على متعتها التي أتت من أجلها ...

ولكني بمجرد أن هممت بتقبيل تلك الفتاة التي كانت شقراء فاتنة، تضع عطرًا غالي الثمن، فاجأتني نفسي بالحاجة لإفراغ كل ما في معدتي وشعوري القوي بالقرف والنفور، مما زاد في حرج تلك الفتاة ودفعها فورًا للرحيل، بعد تلقيها سيل من الاعتذارات مني، وشرحي لها أنها المرة الأولى في حياتي...

وكانت الأخيرة.. لأني اكتشفت أني أريد رجلاً.. وليس امرأة معي في الفراش.. وشعرت وقتها بالقرف من نفسي.. وصببت على رغبتي تلك آلاف اللعنات ...

وكان أنت.. يا «حمزة».. لقد راقبتك كثيرًا.. من بعيد.. دون أن تشعر بي أو تراني.. أنت طفل وقتما تشاء.. لك ألف قناع لدرجة تفقدني توازني.. تحبني لدرجة الإدمان، أرى هذا يطل من نظرة عينيك، كلما صنعت حيلة للذهاب إليك والتحدث معك.. ولكنك تظهر اهتمامك بي كضوء شمس خافت في ليلة شتاء ممطرة فقط لتحافظ على كبريائك.. أنت تبهرني بحكمتك التي تفوق أي خبرة بشرية عادية، أي كتب سحرية قرأتها لتجعلك هكذا؟!.. أحيانًا أظنك جنيًّا.. أو ربما ماردًا ...

لماذا كل خطأ تفعله.. قلبي بمنتهى البساطة يغفره لك.. لماذا أنت دون البشر، تحيا مطمئنًا.. داخلي؟!

هنـاك شـيء غامـض بـك.. يجذبنـي لـك.. يجذبنـي لمصيـر معـروف سـلفًا منـذ خلـق البشـرية.. وأردتـك.. أردت احتضانـك أو احتـواؤك.. أو التوحـد معـك.. فقـط لسـاعات.. حتـى أرى وأعـرف سـر جسـدي الـذي أصابـه هـوس مـا منـذ أصيـب بـك.. وكأنـي نمـرة جائعـة تحـت تأثيـر قطعـة لحـم شـهية ..

وخططـت لأن آخـذك عنـوة لسـاعات حتـى أروي ظمئـي، ثـم بعدهـا أقتلـك.. وأتلـذذ بذلـك.. فقـد قـررت عـدم دفـن جسـدك إلا بعـد تقطيعـه قطعًـا صغيـرة جـدًا كنـوع مـن المزيـد مـن المتعـة لـي!

وحتـى أؤكـد لنفسـي أنـك لا شـيء، مجـرد لحـم وعظـام فانيـة مثلهـم.. وأقتـل هـذا السـحر الـذي يجذبنـي نحـوك»!

٤-زائرة منتصف الليل

تلك كانت طريقتها عندما أحبت وشعرت بالقرف من نفسها؛ لأنه لازال لديها قلب يدق ويشعر ويرغب.. برجل!!!.. وهي التي لا يفرح قلبها سوى بقتل الرجال !!!

لم يعرف عنها «حمزة».. أكثر من أنها طالبة بكلية الهندسة في السنة الثالثة.. ولها قصر قريب من «الزواية» الصغيرة التي أنشأها دكتور «مالك» الذي يعمل عنده للصلاة.. بجانب فيلاته التي تبدو صغيرة بجانب قصر «رهف» ...

«حمزة».. تخيل أن هناك روحًا ملائكية خلف وجهها خالي العيوب.. منسق الملامح.. جميل العينين.. لم يتصور أن تلك الصبية التي بدأ قلبه يدق لهفة للقائها قاتلة.. مستذئبة.. فقد خدعته نظرتها المتوسلة.. وصوتها الهادئ كآلة موسيقية حالمة.. أو ربما هو نوع من الناس، الشر فكرة يسمعون عنها ولكن يصعب عليهم إدراكها.. حتى يقابلوها وجهًا لوجه في طرقات الحياة ...

عرفت عنوان بيته.. منه باستدراجها له وسط حديثها معه.. وعرفت عنه أنه يعيش في شقة أمه المكونة من حجرتين وصالة- وحدهما- بعد زواج أخته الصغيرة وموت والده.. وقررت في

منتصف الليل أن تزوره.. ومنت نفسها بليلة حب بلا قيود معه.. حب غير مشروط.. يرميها خارج الحدود.. ويطفئ ظمأها لشيء غامض مخجل يطلبه جسدها الصبي.. حديثًا ...

لم تكن تريد منه أكثر من لقاء جسد بجسد .. حتى أنها أستعدت وأخذت حبوب منع الحمل .. هكذا حتى دون أستشارة طبيب أو حتى سؤال أحدهم .. كانت تريد متعة عظيمة تعوضها عن همها.. فهي خسرت جنة الآخرة كما تعتقد ولذلك تريد أكثر من حقها من متع جنة الأرض.. وفي الحادية عشر بدأت تعد نفسها لليلة عرسها الجنونية.. التي قررت أن تأخذ فيها رجلاً دون إرادته ثم تقتله.. وكأنها بذلك تتخلص من رغباتها الجسدية للأبد...

في حمامها وردي الحوض.. اغتسلت بصابون متعدد الألوان والعطور.. وغسلت شعرها الأسود الطويل ونشفته.. ونزعت عن جسدها المنحوت البض كل الشعيرات الزائدة التي قد نمت عليه مؤخرًا.. ثم سكبت الزيوت المعطرة على هذا الجسد المحموم الذي يطالبها برجل.. وخرجت من حمامها؛ لترتدي ملابس سوداء.. جاكيت أسود قطني وبنطلون جينز أسود أيضًا.. وأخيرًا، لفت رأسها بطرحة حريرية سوداء.. ثم خرجت من بيتها تبحث عن رجل يسكت صرخات جسدها ناري الرغبات ...

تجولت نظراته في صالة بيته.. بعد أن أفاق من المخدر الذي خدرته به «رهف».. وهو نائم في سريره بواسطة وضع منديل مبلل بالمخدر على فمه وأنفه؛ ليجد نفسه مقيدًا بإحكام على كرسي من كراسي بيته.. ويجد حتى فمه مكممًا بشريط لاصق.. ويجد شخصًا ملثمًا ولا يظهر من ملامح وجهه شيئًا، يقول له بنبرة صوت غير واضحة :

"إياك أن تصدر أي صوت.. وإلا استيقظت أمك وكنت مضطرة لأسكتها بأي طريقة.. هذا إن لم يقتلها الصدمة أو الخوف من الموقف وحده.. فأنا أعلم أنها مصابة بالقلب وأي صدمة لها في حالتها تلك قد تقتلها.. أنصحك بالصمت وتنفيذ أوامري حرفيًا.. وأعدك أنك ستستمتع مثلي لو تعاونت.. فنحن سنفعلها طوعًا أو كرهًا.. وأنا سألتزم بما تريد ....."

لم يفهم حمزة ما تقصده تحديدًا.. وبأي شيء هي ستلتزم.. فنظرت لعينيه العسلية.. كذئب جائع ينظر لقطعة لحم شهية حمراء.. وتابعت بنفس نبرة الصوت البعيدة كل البعد عن صوتها الحقيقي، فهي تعودت بصورة شبه تلقائية تغيير صوتها وهي تتحدث لأي من ضحاياها :

"أنت بأمان طالما تنفذ ما أطلب.. وأعلم أنك إذا حاولت فعل شيء.. أي شيء يضايقني، فأمك وحدها هي التي ستدفع الثمن ....."

وهنا حمزة زمجر معترضًا- وهو مقيد ومكمم- ولكن دون جدوى كما يبدو.. فاقتربت منه وجلست على رجليه.. ليكون وجهها المغطى بالسواد بإحكام مقابلاً لوجهه.. فتأملت شعره الموج الأسود الذي كان يبرق دليلاً على حداثة غسله.. والذي كانت له رائحة جذابة عطرية كرائحة زهرة المشمش.. فمدت يدًا مرتجفة قليلاً.. وبدأت تعبث في شعره.. وهو ينظر لها، وكأنه ينظر لمجنونة من نوع فريد.. لمدة خمس دقائق وهما على تلك الوضعية الشاذة.. حتى انتهت من عبثها بشعر رأسه.. واقتربت منه وقبلت جبينه برفق.. تعجب هو منه.. ومن رقة القرب منها.. رغم غرابة الموقف كله ...

نظرت له.. بعد أن أبعدت وجهها عن وجهه قليلاً.. وقالت له وهي مستمرة بتغيير نغمة صوتها وإخفاء وجهها حتى لا يعرفها :

"هل تريد أن أنزع الشريط اللاصق عن شفيتك الجميلة.. ولكن بشرطين!!!».....

فهز رأسه علامة على الموافقة.. فتابعت :

"أولاً: لا أريدك أن تصدر أي صوت.. وثانيًا: سأقبلك.. لو نزعت الشريط.. هل أنت موافق؟! ....."

في تلك اللحظة تأكد أنه وقع في يد إنسانة مريضة نفسيًا.. وقرر أن يتحملها حتى يجد لنفسه سبيلاً للفرار من يديها وإنقاذ أمه ونفسه.. فهز رأسه مرة أخرى موافقًا...

ونزعت الشريط عن فمه.. فتنفس هو الصعداء.. ولكنه لم ينبت ببنت شفة منتظرًا ماذا ستفعل هي؟!.. ففاجأته بأن احتضنته بقوة.. حتى كادت تؤلمه.. حتى كادت تتوحد به.. فهي لم تحتضن رجلاً منذ مات والدها.. وشعرت براحة تجتاح جسدها المنهك.. وبفرحة صغيرة تسربت لروحها.. وفكرت للحظة.. وتتضايقت من نفسها.. فقد تسرب لها شعور باليأس من عدم قدرتها يومًا على إيذاء حمزة.. إنها بطريقة ما تحبه.. إنها تريده دائمًا بين أحضانها.. إنه كدم جديد يجري في عروقها يمنحها الحياة.. ويطهرها بفرحة لا تعرف مدى صدقها وهل ستدوم.. أم لأنها تجرب شيئًا جديدًا عليها.. مبهورة بالتجربة ...

عرت شفيتها سريعًا من القناع الذي على وجهها.. واقتربت منه وقبلته.. لم يبادلها القبلة.. فظلت تحاول.. وتحاول معه وتعتصر شفتيه بين شفتيها الناعمة لتثيره.. وتحرك مشاعره..

وعندما يئست منه ومن استجابته لها، رفعت عينيها عن وجهه ونظرت له بلوم أذاب قلبه رغم أنه لا يرى ملامح وجهها جيدًا.. ولا عينيها التي هي نافذة روحها.. ولكنه ظل على موقفه منها.. كتمثال جامد لا يتحرك ولا يبادلها القبلة.. فرفعت رأسها في يأس عنه، وهمست له :

"أنت لا تريدني.. لأني لست جميلة في عينيك أم لأني أقيدك.. لو كنت أنت الذي يقيدني، كنت سأكون شهية للغاية في نظرك.. أليس كذلك؟! ....."

نطق أخيرًا حمزة قائلاً :

"ألا تري غرابة ولو قليلاً فيما تفعلين.. أن تقتحمي بيتي وتقيديني وتهددينني بقتل أمي ثم تحاولين معي ....."

وسكت خجلاً.. ثم تابع :

"ماذا تريدين مني؟! ....."

فقالت صادقة :

"أريد أن أضمك حتى أشعر بالأمان وبعدها أعدك سأختفي كما جئت.. وأعدك لن أؤذيك أبدًا»....

حتى أذان الفجر.. وهي تجلس حيث هو مقيد على كرسي..

وسط صالة بيته- على رجليه- ووجهها المغطى مقابلاً لوجهه، وتحتضنه بكلتا يديها، كطفلة تعلقت بوالد غائب من سنين.. ورأسها على كتفه في وداعة طفلة رضيعة، وهو يتعجب من تصرفها غير المنطقي.. غير المفهوم.. فأي مختلة- التي هو الآن- مقيد بين أحضانها.. ومن هي وماذا تريد منه؟؟؟

"سأذهب الآن.. سأخدرك معذرة حتى أحل وثاقك.. وعندما تستيقظ لن تجدني.. اعتبرني حلمًا أو كابوسًا.. الوداع صديقي.. كانت ليلة جميلة.. أشكرك عليها حقًا ....."

واختفت.. كشعاع القمر عند شروق الشمس ...

نفد المال منها.. والبيت وأختيها لهم مطالب لا تنتهي، وليس هناك قريب يساعد أو صديق يسأل عن الحال.. وفكرت كيف ستجلب المال هذه المرة.. فمنذ زيارتها لحمزة في بيته وشيء بها عاد للحياة، ليس ضمير يؤنبها على من قتلتهم.. ولكنه شيء كنقطة بيضاء أخيرة كانت مختبئة وسط ملايين النقاط السوداء في روحها الآثمة.. المنهكة من الذنوب ...

وتتوالى الحكومات العاجزة عن الإدارة الكوفء لبلد عظيم كمصر.. ووجوه رؤساء الوزراء تتعدد.. والأحوال الاقتصادية تسوء أكثر.. والثورة مستمرة بعدد لا بأس به من الاحتجاجات

والاعتصامات الهمجية غير المنظمة والتي تحمل فقط مطالب فئات بعينها من الشعب.. وإن كان الشباب الطاهر القلب قد غادر الميدان.. للأسف دون التأكد من حماية تلك الثورة العظيمة التي راح ضحيتها الورد الذي تفتح في جنان مصر من خيرة البنات والشباب في عمر الربيع.. ورهف حائرة.. فمنذ عدة أشهر لم تزفر يديها بالقتل حتى نفد كل المال الذي كان معها ...

شوراع القاهرة العامرة.. من يسير بها ليلاً.. كما فعلت «رهف».. يجدها صامتة تبكي حالها المؤسف.. عندما يبدأ سكانها إلقاء أكياس القمامة من النوافذ والشبابيك.. أمام منازلهم على أمل أن يمر عامل النظافة ويأخذها.. ولكن العمال قليلو العدد ومهام تنظيف الشوارع أكبر من طاقتهم.. والإمكانيات المتاحة لهم لأداء عملهم تكاد تكون معدومة.. حتى مرتباتهم يرثى لها.. تجعل منهم شحاذين لكل عابر سبيل حتى يستمر بقاؤهم على قيد الحياة.. وتتحول الشوارع لشيء بشع المنظر.. كريه الرائحة.. يقتل الولاء والانتماء.. فكلما اقتلعوا أشجار الورود.. قتلوا الحب وساد الجمود...

الحزب الوطني الحاكم وقت مبارك.. كان من بين أعضائه، أعضاء في مجلس الشعب.. كانوا ينجحون دائمًا في الانتخابات البرلمانية رغم كره معظم الشعب لهم.. حتى عزفت جموع الشعب

وقت حكم مبارك عن الذهاب للانتخاب.. لعلمهم أن أصواتهم الانتخابية لم تعد مؤثرة، وأن هناك يداً شريرة خفية تتلاعب في نتائج الانتخابات بالتزوير والتدليس والتعتيم.. حتى مبارك نفسه كان ينجح في انتخابات رئاسة الجمهورية بنسب تصويت خيالية !!!

اختارت «رهف» هذه المرة يداً سرقت الكثير من البلد لتقطعها.. كان رجل أعمال كبير.. عرف عنه نفوذه الغير طبيعي داخل المصالح الحكومية.. وتقديمه الرشاوي كمرتبات ثابتة لبعض المسئولين الكبار بها؛ لتيسير أعماله التجارية وصفقاته المشبوهة.. وقبل قيام الثورة، كان عضو مجلس شعب وأحد أعضاء الحزب الوطني الذي انحل بمجرد قيام الثورة بعد أن تم حرق معظم مقراته ...

ولكن بعد الثورة.. تحول لكلب أجرب الكل يبتعد عنه ويحمي نفسه من ماضيه الأسود.. حتى أولاده اضطروا مغادرة البلاد مع أمهم التي هي زوجته الإنجليزية؛ هربًا من نظرات الناس لهم وطريقة تعاملهم معهم بعد أن فضحت الثورة حقيقة أعمال والدهم ...

هذه المرة غيرت رهف أسلوبها في القتل.. فدخلت بيته في صورة خادمة جلبها له بواب عمارته لتنظف شقته لمرة واحدة وتذهب.. لقد جمعت رهف بياناتها عنه وعرفت كيف تدخل بيته وهو وحده به.. متنكرة في لبس فتاة فلاحة تجوب الشوارع

لتنظيف البيوت.. مغيرة من لون شعرها الأسود إلى شعر مستعار ذهبي وواضعة عدسات لاصقة سوداء تخفي عيونها الخضراء.. وجلباب فلاحي فضفاض عليها.. وإيشارب زاهي الألوان ...

بمجرد تناوله كوب العصير من يدها.. غاب عن الوعي.. فنظرت له للحظة ثم أخرجت خنجرها وطعنته في قلبه مباشرة.. وابتسمت كعادتها عند رؤية دمه.. وفي دقيقة كان قد مات.. فطافت في شقته سريعًا وأخذت كل ما له قيمة وخف وزنه من أقلام ذهبية إلى ساعته الماسية وأخيرًا وجدت مفتاح خزانته التي وجدت بها مبلغًا من المال يتجاوز الخمسين ألف جنيه.. وتراجعت عن أخذ الفيزا ومفتاح السيارة حتى لا تلفت الأنظار لها ولجريمتها، فهي قتلته في شقته وعاجلاً أو آجلاً.. سوف تقع الجثة في يد الشرطة.. ولذا حملت كل ما استطاعت في كيس لـ «الزبالة» أسود كبير وخرجت تسير الهوينة أمام بواب العمارة، ثم ألقت عليه السلام وأعطته خمسون جنيهًا وقالت له أن «البيه» أعطاها أجرها مائة جنيه.. فقسمتهم مناصفة بينها وبينه لأنه سمح لها بصعود العمارة.. وأخبرت البواب الساذج عن الكيس الأسود في يدها أنها قمامة الشقة والتي ستتخلص منها في طريقها.. وشكرت البواب.. واختفت في لحظة ...

حل الظلام فدخلت رهف حجرتها بعد تناولها عشاءً لذيذًا مع أختيها.. وهي في سريرها.. لا تدري لماذا تمنت الموت؟!.. وتمنت أن يكون سريرها الواسع المريح هذا قبرها الأبدي.. تمنت موتًا بلا استيقاظ لتحاسب على أعمالها.. فهي تعرف أنه لو كان هناك حقًا- بعد الموت- جحيمًا وجنة.. لكان مصيرها أسوأ مكان في ذلك الجحيم الذي يحكون عنه.. ويخوفون منه.. فهي قتلت خالتها القاسية.. وأستاذها الجامعي المتصابي.. والطبيب الجشع.. والمعلم الفاسد.. وأخيرًا رجل الأعمال اللص.. ولكنها بدلاً من الخوف وجدت نفسها تبتسم.. فجميعهم كان يستحق القتل.. وهي فقط كانت اليد التي نفذت العدالة المتأخرة ...

في السماء كان القمر مكتملاً.. وينير شرفة حجرتها، وتلهو نسمات الليل الباردة مع ستائر حجرتها الحريرية وردية اللون.. وتلقي بظلالها على الأرض.. ورهف بعيون نمرة ناعسة تراقب تحركات القمر والسحب وهي مستلقية يقظة في سريرها.. وتتمنى لو يتوقف بها الزمن هكذا ...

وهي في سريرها وحجرتها غارقة في الظلام ينيرها فقط ضوء القمر.. بعيدًا عن عالم عليك أحيانًا القتل به.. فقط لتبقى على قيد الحياة ...

●●●

obeikan.com

٥-غرام في ثلاجة الموتى

للمرة الأولى يفقد دكتور مالك أعصابه غضبًا وهو يتحدث مع حمزة :

"قلت لك مرارًا وتكرارًا.. هؤلاء البشر.. ليس لهم دخل أخر سوى ما نرسل لهم من معاشات شهرية.. فلا تتأخر يا حمزة في إرسال الحوالات لهم.. وأنت وعدتني بذلك.. ثم أكتشف أنك تأخرت يومين عن ميعاد إرسال المال لهم.. حتى اتصل أحدهم يشكوى لي وهو يبكي لأنه لم يشترِ دواء ابنه الشهري بسبب تأخر الحوالة.. أنا في قمة غضبي منك يا حمزة.. في قمة غضبي»".....

سكت دكتور مالك عن الكلام عندما لاحظ اختفاء اللون من وجه حمزة من شدة الحرج نتيجة تقصيره غير المتعمد أمام دكتور مالك الرجل الذي يعمل عنده، ويكن له الكثير من الاحترام والمودة.. فقد تعلم كل شيء جميل من دكتور مالك رغم قصر المدة التي قضاها معه.. والتي لا تزيد عن عامين.. فقد علمه أن يقرأ الكتب القيمة، وماذا يقرأ.. حتى يبني عقله.. فدور حمزة العناية الشخصية بدكتور مالك، فهو رجل في الحادية والأربعين من عمره.. ولكنه عاجز عن مغادرة حتى سريره ولو حتى للذهاب

للحمام.. فلديه شلل في قدميه ويده اليسرى.. ولكن ذلك حدث لدكتور مالك منذ عامين فقط ولا أحد مسموح له أن يسأل عن السبب لحالته تلك أو مدى تطورها.. فحالة دكتور مالك الصحية خطر أحمر.. لا يجوز تجاوزه عند أي نقاش ...

حتى أخته الوحيدة «لمياء».. ليس لها حق التدخل في حالة دكتور مالك الصحية أو محاولة معرفة الجديد بها.. فدكتور مالك كان يومًا أستاذًا بإحدى جامعات كلية الطب.. وكانت له مكانة عظيمة بين تلاميذه.. ولكن دوام الحال من المحال ...

لا يمكنك القول عن دكتور مالك أنه ليس وسيمًا رغم مرضه.. ولا يمكنك حصر وسامته في تلك الوسامة التقليدية.. التي تميزها الملامح شديدة التناسق.. فلا عينيه ملونة ولا بشرته ذهبية.. ورغم نحول بنيانه مؤخرًا.. ولكن به شيء يقطر رجولة وحكمة وعلمًا.. شيء رائحته طيبة يجذبك للبقاء معه ساعات وساعات فقط تستمع له.. وللعلم الذي اتخذه صاحبًا...

"وعد مني غدًا.. سأذهب لمكتب البريد لأحول لهم المعاشات الشهرية.. من فضلك دكتور مالك، سامحني.. هو خطأ مني غير متعمد وغير مقصود.. فقط مؤخرًا الالتزامات المطلوبة مني صارت أكثر من طاقتي.. كل الاعتذار لك أستاذي ....."

يعلم جيدًا دكتور مالك أن حمزة عندما يناديه بأستاذي فإنه يريد منه شيئًا.. قد يرفضه هو.. ولذلك ابتسم أخيرًا في وجه حمزة وهو يقول له :

"آتي ما عندك يا حمزة.. ماذا تريد؟!.. هل تريد شخصًا أخر يساعدك بالعمل؟.. أنت تعلم أني أثق بك.. ومن الصعب وجود شخص أخر يمكن منحه مكانتك في قلبي ....."

فاقترب حمزة من السرير النائم به دكتور مالك.. وبكل الحنان طبع قبلة على كتفه الأيسر.. وكأنه والده أو شيء أغلى وأثمن ...

وقفت «لمياء» الأخت الصغرى لدكتور مالك تراقب الموقف من خلف ظهر حمزة.. وتحسد أخاها الكبير على حب حمزة له.. ولكن من يقابل دكتور مالك ولا يحبه.. وكانت تحمل صينية كبيرة عليها غداء لأخيها المريض.. عبارة عن «حساء خضار.. ودجاج مسلوق».. تمامًا كما أمر الطبيب لأخيها.. وفورًا لاحظها حمزة.. فهم يأخذ الصينية منها وهو يمنحها أروع ابتساماته.. التي تذكر قلبها بأنها رغم وزنها الزائد بصورة كبيرة.. وتجاوزها سن الثلاثين، مازالت أنثى ...

قد تكون «لمياء» فتاة بدينة.. ولكن لها قلب راقي المشاعر.. حساس لدرجة فاتنة.. والسبب الحقيقي وراء تأخر زواجها حتى اقتربت من الحادية والثلاثين من العمر هو خجلها من الظهور كثيرًا وسط الناس.. فهي أول من حاكمت نفسها على وزنها الزائد.. وحكمت على نفسها بالسجن الدائم في البيت مستسلمة للمزيد من الطعام.. والمزيد من الزيادة في الوزن والحجم ...

ولذا كان حمزة هو حلقة الوصل بين دكتور مالك وأخته لمياء.. والعالم الخارجي.. فكل شيء كان هو يقوم به.. حتى مشتريات البيت.. وأحيانًا كانت تصاحبه لمياء وهي تختبئ خلفه.. كطفلة شديدة الكسوف من رؤية الغرباء لها.. ومن نظراتهم التي تحملق دائمًا في بدانتها الزائدة ...

بمجرد أن لمح دكتور مالك صينية الطعام التي بين يدي لمياء زمجر ضاحكًا:

"لمياء حبيبتي.. لقد تناولت الإفطار منذ قليل.. لم أجع بعد ....."

فردت عليه لمياء بابتسامتها الطفولية التي تميزها :

"أنت أكلت منذ ساعات طويلة.. وأقل مما يسد رمق عصفورة.. والطبيب أوصى بالاهتمام بطعامك كثيرًا.. حتى تكون بأفضل صحة ....."

عاد الغضب لدكتور مالك ثانيًا وهو يقول :

"هذا الطبيب كان يومًا تلميذ لي.. فلا تهتمي لأمره كثيرًا.. أنا أعرف ما هو مفيد لي أكثر منه ....."

فتدخل حمزة.. لينهي حوار سينتهي بمعركة.. ثم بكارثة إنسانية.. عندما يصل غضب دكتور مالك للعزوف عن الطعام باقي اليوم :

"أنسة لمياء.. يمكنك ترك صينية الطعام هنا وأنا سأتولى مسألة إطعام أستاذي ....."

وفعلت لمياء ما قاله حمزة حرفيًا.. لأن فقط من قاله حمزة...

تنفس دكتور مالك الصعداء عندما خرجت لمياء من حجرته ونظر فجأة لحمزة وقال له :

"لن آكل شيئًا.. مهما فعلت أو قلت.. فلا شهية لي".

فنظر له حمزة بمكر قط بري وقال له :

"حتى لو قلت لك أني جلبت لك الكتب القديمة النادرة التي طلبتها.. وبثمن لن تصدقه ....."

فتهللت أسارير وجه دكتور مالك وهو يقول :

"حقًا.. أين هي تلك الكتب؟.. ومن الصباح وأنت هنا ولم تعرضها عليَّ!!!.. أين هي بالله عليك؟.. آتي بها فورًا.. أنا مشتاق لقراءتها.. وحفظ كل كلمة علم وحكمة وحب بها ....."

"هي كلمة واحدة.. وليس هناك مجال للتفاوض أو المساومة.. الطعام أولاً.. إذا لم تأكل فليست هناك أية كتب ....."

جلست رهف صباحًا فى حديقة بيتها تفكر.. فيما حدث لها وكيف تعلقت بحمزة التي لازالت تراه كل فترة.. وهو لا يعرف أنها تلك المختلة التي اقتحمت بيته ذات ليلة.. وقبلته رغمًا عن إرادته !!!

فكرت بيأس أول مرة تشعر به.. أنها زهدت البقاء على قيد الحياة، فقد ملت عذاب الحياة.. الذي فقط يتغير نوعه ..

فنحن لم نعد نعيش الأيام.. بل الايام هي التي صارت تعيش علينا.. فنحن دون وعي منا صرنا وقودها الذي يحترق كل لحظة لتستمر هي بكل استبدادها.. فليس الملل في تكرار الأيام.. بل الملل من إجبار الدنيا لنا على تكرار نفس الأفعال يوميًا ...

رن هاتفها المحمول.. فنظرت بقلة اهتمام لترى من المتصل.. فوجدتها صديقتها الروسية.. وزميلاتها في الجامعة التي أتت بها ذات يوم البيت.. وقررت عدم الرد عليها.. فهي اكتشفت أنها لن تكون مثلها يومًا شاذة جنسيًا.. بل هي الآن في وضع مختلف.. وضع يثير جنونها.. فهي الآن متعلقة بشاب.. شاب أبعد ما يكون عنها.. فهي روح آثمة قاتلة.. وهو اختاره الناس ليصلي بهم جماعة.. ثم يجلس بينهم بعدها ويحدثهم في أمور الدين ويجيب عليهم بعلم وحكمة رغم صغر سنه.. وهو أخبرها أن دكتور «مالك».. الرجل الذي يعمل عنده هو من علمه كل هذا، ونصحه بالكتب التي عليه قراءتها ...

عاد هاتفها يرن مرة أخرى.. وكان المتصل صديقتها الروسية مرة أخرى.. وللحظة شعرت رهف بحالة من الوحدة والظمأ.. الظمأ لشيء يخرجها من دائرة كآبتها البشعة التي تتسع وتغرق بها يومًا بعد يوم.. ولم تدرِ بنفسها إلا وهي تجيب عليها.. وكأنها مخدرة.. وكأنها منتشية بشيء سحري غامض.. تمام كشعورها بلذة القتل.. وتلك الحرية العبثية التي تحتلها وتحررها من قيودها البشرية ...

وفي دقائق كانت تعد كل أمور حياتها؛ لتفرغ وقتها لتذهب لبيت تلك الصديقة الروسية مساءً ...

تعليماتها لأختها الكبرى هدى بالاعتناء بـ «ملك» في فترة غيابها عن البيت.. كانت صارمة.. وتقبلتها هدى بصدر رحب.. دون أي تعليق سوى أنها كانت تميئ برأسها بالموافقة كليًا لأي شيء تقوله رهف.. فالأخيرة هي بطريقتها رجل البيت الذي ينفق على الجميع ويدافع عنهم ويتحمل المسئولية كاملة.. وهدى دورها التمتع بالفساتين الجديدة والخروج مع صاحباتها وعيش حياة لم تكن تحلم بها قط.. وهي لا تخجل أبدًا من طلب المال من رهف.. ولا تسألها أبدًا عن مصدره ...

دخلت بيت صديقتها «سابينا».. لتجد مجموعة من الشباب أغلبهم من سنها.. وللحظات تفحصتهم رهف بنظرات سريعة.. فهي تريد شابًا تقضي معه ليلتها.. ربما بذلك تنسى «شيخ الجامع» الذي أحبته.. ورفض أن يبادلها حتى قبلة.. كانت مصرة في تلك الليلة ألا تعود لبيتها «عذراء».. مهما كان الثمن.. عرضوا عليها بعض الشراب الذي يذهب العقل.. فلم ترفض.. ثم وضعت «سابينا».. أقراصًا في يدها مخدرة.. وقالت لها عنها أنها أقراص السعادة.. فابتلعتها رهف دون أدنى تفكير ...

كانت ترقص وتمرح مع الموجودين حولها في صخب.. كانت تريد كل متع الحياة دفعة واحدة في كأس واحد تشربه جرعة واحدة.. حتى اصطحبها شاب لإحدى حجرات النوم في بيت

صديقتها.. فلم تعارض بل ذهبت معه راضية مطمئنة.. حتى بدأ بخلع ملابسه.. وقبل أن يقترب منها وجدت نفسها تدفعه بكل قوتها بعيدًا عنها.. فهي لم تتصور احتمالها لإلقائه بلاء جسده.. داخل رحمها البكر.. وهربت إلى صالة البيت وعادت للرقص وحدها.. لم يتبعها الشاب بل نام مكانه.. فقد كان مخدر للغاية.. ومنحها ابتسامة واسعة ساخرة من جبنها !!!

الأشكال حولها بدأت تتماوج.. ثم بدأت ترى أشياء ليست موجودة.. وتسمع أصوات غير حقيقية.. حتى استلقت غائبة عن الوعي لمدة ساعة.. على كرسي.. دون أي حراك في الظاهر.. ولكنها كانت تصارع آلاف الأشباح وآلاف الأوهام التي يصورها عقلها المخدر ...

في الثالثة صباحًا كان عليها العودة لبيتها أو قصرها الذي تحول لقبر تدفن به ضحاياها من القتلة.. فركبت سيارتها تقودها.. وهي أبعد ما يكون للقدرة على السيطرة على المقود ...

أوقفت سيارتها أمام بيت حمزة ثم وقفت تنظر لشباك حجرته.. لمدة ساعة كاملة.. حتى سمعت أذان الفجر.. ووجدت نفسها كارهة لنفسها على تلك الحالة التي أوصلت لها نفسها على أمل أن تغادرها همومها.. ولكن همومها لم تفعل بل زادت..

وزادت.. وتجسدت في صورة وحش يضع كلتا قدميه على صدرها.. ويقف مسترخيًا.. وبل ويبصق عليها وهو يبتسم احتفالاً بانتصاره عليها ...

مع أول شعاع للفجر خرج فجأة عليها حمزة من بيته.. وتعجب من رؤيتها تجلس في سيارتها خلف المقود في تلك الساعة.. وخاصة مع هطول الأمطار في تلك الليلة الشتوية الباردة ...

اقترب منها بابتسامته الطيبة.. فوجدت نفسها فورًا تغادر سيارتها.. لتلقي نفسها بين أحضانه وتغيب عن الوعي !!!

"إذا لم تتحمل البقاء مع نفسك، فلا تجبر الآخرين على البقاء معك"

هكذا فكر دكتور مالك وهو يدعي حاجته الشديدة للنوم حتى تتركه أخته الأصغر لمياء، وتذهب لتفعل أي شيء قد يبهجها ويسليها.. فهي بجانبه لحظة بلحظة منذ مرضه.. تفعل كل ما في طاقتها للعناية به وبصحته وطعامه ودوائه.. وأخيرًا خرجت من الحجرة وتركته وحده.. يصارع اليأس من البقاء على قيد الحياة أكثر.. فما جدوى بقائه على قيد الحياة حبيس ذكرياته المأساوية.. فلا زال المشهد البشع حية ذكرياته في مقلتيه.. زوجته وحب عمره في السرير مع صديق طفولته.. بلا ملابس.. بلا

أخلاق.. بلا إنسانية يمارسان الفاحشة.. فوضع يده اليمنى على عينيه.. فزعًا مما رأى في خياله من ذكريات خبيثة.. ثم كان هناك وجع همجي في قلبه.. فنزلت يده الوحيدة القادرة على الحركة من على عينيه إلى قلبه الذي تحمل الكثير.. الكثير.. وصبر واحتسب عند رب عادل رحيم ...

استيقظ دكتور مالك على أذان الفجر.. ليجد حمزة واقفًا وسط حجرة نومه يحمل فتاة رائعة الجمال بين ذراعيه مغمى عليها أو غائبة عن الوعي.. لم يستطع أن يميز.. وإذا بحمزة يلقيها بين يديه وبجانبه على السرير الذي كان ينام عليه :

"من تلك يا حمزة وما قصتها؟.. ولماذا أتيت بها هنا؟.. كنت أخذتها إلى أي مستشفى قريب.. يبدو أنها تحتاج إلى عناية طبية شديدة.. لماذا هي غائبة عن الوعي؟.. جاوب يا حمزة.. بالله عليك أنا لا أخاطب نفسي ....."

كان حمزة منقطع الأنفاس من الجري وهو يحمل رهف حتى يصل بها لبيت دكتور مالك وينقذها.. فهذا الأخير، كان يومًا طبيبًا عظيمًا.. واحمر وجه حمزة تلقائيًا عندما تذكر مدى تعلقه بتلك الفتاة.. التي تفوح منها الآن رائحة الخمر كعطر فاسد لزهرة بهية التكوين.. وقال أخيرًا متوسلاً لدكتور مالك :

"من فضلك دكتور مالك فقط اجعلها تفيق.. ثم سأحكي لك كل شيء.. أرجوك ....."

عينيها خضراء.. وفمها كرزة حمراء.. ووجنتيها أنعم من خد وردة بيضاء.. وشعرها ممـوج بسواد الليل.. كانت ملاكًا نائمًا.. هكذا رآها حمزة.. أما دكتور مالك فقد رأى فيها شيطانًا صغيرًا متمردًا.. أو شيئًا أسوأ قليلاً من الشيطان.. فالشيطان أخر ما يفعله من شر.. هو أن يوسوس للبشر.. ولكن هي.. تنفذ.. فبمجرد أن فحصها دكتور مالك بواسطة لمياء أخته التي كانت تنفذ كل تعليماته الطبية حرفيًا.. بأن تقيس لها الحرارة أو الضغط أو النبض أو تساعد أخاها في وضع السماعة الطبية على جسد رهف؛ ليرى دكتور مالك حالة أعضاء جسدها الداخلية.. عرف أنها تعاني حالة «سكر» شديدة وشك في تناولها جرعة زائدة من المواد المخدرة.. ونظر لها بقرف وهو يكتب لها بعض الأدوية والحقن التي ذهب حمزة فورًا لجلبها من أقرب صيدلية ...

لطالما حرم دكتور مالك عمله كطبيب وجراح من ارتداء خاتم والده الذي كان يعتز به كثيرًا.. فقد كان خاتمًا مميزًا من الفضة وبه نقوش.. والخاتم مطلي باللون الأسود ويتوسطه حجر من الياقوت الأحمر.. ولكن بعد مرضه وعجزه عن ممارسة مهنته، لم يعد هذا الخاتم القديم يفارق أصبعه ليل نهار.. وعندما

استيقظت رهف وجدت نفسها للمرة الأولى محل اهتمام ورعاية من آخرين.. وخاصة حمزة الذي مات قلقًا عليها وعلى صحتها...

فتحت عينيها.. فاصطدم بصرها بيد دكتور مالك الذي كان فوق كرسيه المتحرك بالقرب من سريره الذي كانت تنام عليه.. وكان يحاول معرفة مدى هبوط درجة حرارة جسدها.. التي كانت مرتفعة.. بوضع يده على رأسها ووجنتيها.. ووجدت عينيها المتعبة متعلقة بخاتم يده.. تتفحصه.. حتى قبل أن تنظر لوجه صاحب الخاتم.. شعرت بالرعب.. وتعجبت من نفسها ...

لم تكن تعرف من الوجوه الموجودة حولها سوى وجه حمزة حنون الملامح، فاطمأنت سريعًا.. وعرفت أنها بمأمن عن أي شيء قد يؤذيها.. ولكنها شعرت بنظرات تخترق روحها.. وتراها من الداخل.. ترى عقلها.. وقلبها.. وروحها الشريرة التي يثيرها القتل والدم!!!.. أو هكذا خيل إليها.. عندما تقابلت عينيها وقحة النظرات مع عيني دكتور مالك.. من هذا الرجل؟.. سألت نفسها...

قاطع تأملها في الوجوه الثلاثة.. وجه حمزة ودكتور مالك ولمياء.. قول دكتور مالك لها وهو يرمقها بنظرة قرف :

"أنتِ لو ابنتي.. كنت قتلتك.. أين أهلك؟.. أين والدك؟.. أين أمك؟.. وحتى لو كنتِ يتيمة، لا تفعلي بنفسك هذا.. جرعة المخدرات الزائدة تلك.. كان من الممكن جدًا أن تقتلك.. وأنت لا زلتِ طفلة غبية.. كم عمرك؟.. هيا أخبريني؟»

برغم أن رهف لم تسمح يومًا لأحد بمخاطبتها بتلك الطريقة وسكتت للمرة الأولى في حياتها عن الدفاع عن نفسها.. إلا أنها كانت تملكتها رهبة من الرد على دكتور مالك.. وتمتمت بحذر طفلة متلبسة بسرقة قطعة حلوة :

"الليلة.. عيد ميلادي العشرين !"

فغير حمزة مجرى الحديث قائلاً لها :

«كل عام وأنتِ بخير رهف.. ولكن تلك ليست طريقة للاحتفال بعيد ميلادك».

فقاطعه دكتور مالك غاضبًا :

"تلك طريقة للانتحار حمزة.. وليس الاحتفال.. قولي لي أين أهلك؟"

كانت رهف تريد أن تغادر سرير دكتور مالك سريعًا الذي من الواضح أنه قرر التعامل معها على أنها «فيروس» وضعه

تحت «الميكروسكوب».. وقرر فحصه بعناية بأسئلته التي نوى أن يمطرها بها.. فوجدت نفسها خائفة على أسرارها الدموية من أن تتكشف.. فأجابت بتردد :

"أبي وأمي ماتوا.. ولم يبقَ لي سوى أختي الكبيرة وأختي الصغرى.. أنا أسفة على إزعاجكم.. وسأغادر الآن ....."

قامت عنوة من السرير.. فرفض جسدها المتهالك الاستجابة لرغبتها والحركة.. فوقعت مرة أخرى جالسة على السرير، ونظرت لدكتور مالك بقلة حيلة وعلت ملامحها خيبة أمل في القدرة على الهرب من نظرات دكتور مالك التي تعري روحها الآثمة.. وكأن روح دكتور مالك كانت روحها اللوامة، ولكن في جسد أخر.. مسجون في كرسي متحرك!

بصوت تعود الأمر والنهي خاطبها دكتور مالك :

"رغم أنك كارثة إنسانية ومسئولية كبيرة.. ويبدو عليك الغباء الشديد.. ولكني سأسمح لك بالبقاء هنا حتى تكوني أفضل وتستطيعي المغادرة.. هيا اتصلي بأختك الكبيرة وأخبريها أنك بخير وأنك ستبيتي الليلة هنا.. وبعدها ستأخذين حقنة.. لمياء ستعطيها لك وتنامين؛ لترتاحي.. لقد أشرقت الشمس أصلاً....."

من يجرؤ أن يناقش دكتور مالك عندما يلقي التعليمات على عباد الله الأقل منه ذكاء.. فنفذت كل ما قال.. وبعد وخزها بالحقنة من يد لمياء.. ظلت هي في سريره وهو بجانبها على كرسيه المتحرك.. ثم قالت له فجأة بعفوية لم تتعود عليها من قبل في الحديث مع الأخرين :

"لما تكرهني هكذا وأنت لا تعرفني.. وتلك المرة الأولى التي تقابلني فيها؟؟؟ ....."

رغم قلة النوم والتعب الذي كان يشعر به دكتور مالك إلا أنه كان قادرًا على خوض ألف حرب كلامية؛ ليفهمها موقفه منها، فقال لها :

"لتفهميني.. يجب أن تري نفسك من وجهه نظري.. ولتري نفسك من وجهة نظري سأروي لك قصة صغيرة.. لعلك تزكي وتفهمي ....."

لم يحكِ لها أحد من قبل حدوتة قبل النوم سوى أمها.. وحدث ذلك منذ زمن بعيد.. بعيد.. منذ كانت إنسانة.. وقبل أن تتحول لـ «مستذئبة».. تقتل لتبقى على قيد الحياة هي وأختيها.. فقالت له مبتسمة من قلبها.. وهي التي كادت تنسى الابتسام والطمأنينة :

"قصة ماذا؟ ....."

كان وحده معها في الحجرة بعد أن ذهبت لمياء لتنام وحمزة ليصلي الفجر.. فقال لها :

"قصة: «غرام في ثلاجة الموت "....."

راقها الاسم جداً.. فهي تميل للدموية حتى في الحواديت فبدأ يروي قصته :

قصة: «غرام في ثلاجة الموتى»:

إحساس مرعب أحاط به.. عندما اكتشف مدى ضيق المكان الذي ينام به.. لم يستطع أن يرفع يده.. أو حتى يحرك قدمه.. فتح عينيه؛ ليصفع عينيه ظلام حالك.. لا يستطيع فيه أن يرى حتى كف يده.. فانقبض قلبه.. وسأل نفسه أين هو؟.. ولماذا يشعر بكل هذا البرد؟!

أخر ما يتذكره.. حفلة صاخبة في بيت أحد أصدقائه.. في ليلة رأس السنة.. لقد تناول جرعة مخدرات زائدة.. ثم فجأة غاب عن الوعي.. ودقائق قليلة وتوقف قلبه الشاب عن الحياة.. عن النبض.. ومات ...

وبرغم إحكام الكفن حوله إلا أن روحه تمكنت بسهولة من مغادرة درج الموتى الذي تنام به جثته بجانب أدراج أخرى بها العديد من الجثث.. والتجول في أرجاء حجرة ثلاجة الموتى ...

كان في أخر الحجرة الكبيرة التي تحوي أدراج الموتى، سرير طبي.. موضوع عليه جثة أخرى.. مشى نحو السرير، يريد الاستكشاف كما هي عادته.. فهو أيضًا أدمن المخدرات فقط ليكتشف عالم خفي.. لم يكن يعلم أن نهايته الماسأوية ستكون على أعتاب هذا العالم الملعون ...

أزاح الغطاء عن الجثة الموجودة على السرير.. ليجد أبشع منظر رأته عينيه في حياته.. لقد شاهد شابًا محترقًا.. ومشوه الملامح.. فصرخ صرخة مدوية لم يسمعها أحد، وغطى الجثة مسرعًا.. وارتد للخلف في رعب وذهول.. وعاد يسأل نفسه: أين هو وماذا يحدث له؟؟؟ ...

الأبواب مغلقة بإحكام.. ولذلك لم يستطع الخروج من هذه الحجرة.. التي صارت جحيمًا هو محبوس به وحده ...

تعب من كثرة الصراخ والاستغاثة وطلب المساعدة.. فلم يسمعه أحد.. ولم يشعر به أحد.. فهو شبح.. في ثلاجة الموتى.. لا يعرف حتى بموته ولا حتى مكانه ولا يتذكر كيف قتل نفسه بالمخدرات ...

جلس في زاوية الغرفة الباردة القرفصاء على الأرض، يبكي حاله.. إلى أن وجد عينيه تقع على قدمين.. كانت لفتاة تسير على مهل في الغرفة ...

ازداد رعبًا على رعب.. عندما رفع عينيه عن الأرض بحثًا عن تلك الفتاة التي تسير أمامه، ولم يجد سوى النصف السفلي فقط هو الظاهر من جسدها.. ونصفها العلوي مختف.. وهنا تملك الرعب منه، وكالأطفال.. وهربًا من الفزع خبأ وجهه بين ركبتيه، وأحاط نفسه بكلتا يديه ...

انتفض جسده بقوة حينما هبطت يد ناعمة على كتفه.. ثم سمع ضحكة رنانة هزت أرجاء الحجرة الواسعة ..

"أنت شبح.. بربك.. قل لي.. مما أنت خائف؟!.. ولا مخلوق يمكنه رؤيتك أو سماعك أصلاً ....."

قالت له الفتاة بعد أن جلست بجانبه على الأرض وقد ظهر أخيرًا جسدها كله له.. وبات يستطيع رؤيتها.. فقاطعها:

"أنا شبح؟!.. كيف..؟.. من أنت وماذا تفعلين هنا؟....."

عادت الفتاة تضحك.. ثم بدأت تنشد أغنية غريبة بضحكة هستيرية مخيفة :

"تحيـة للمـوت.. وللموتـى.. فالحيـاة كابـوس للموتـى.. تحيـة للمـوت وللموتـى.. فالحيـاة كابـوس للموتـى."

ثم.. سكتت، وذهبت ووقفت بجانب السرير الذي عليه جثة الشاب المحروق.. وجلست على حافة السرير.. وبدأت تهز رجليها بمرح غير مبالية بشيء وتابعت شرحها الموقف العجيب له :

"أنت هنا منذ صباح أمس.. ونحن هنا في ثلاجة الموتى، الناس تسمي هذا المكان «المشرحة".....".

وعادت تبتسم بلا مبالاة، وكأنها ألقت لتوها على مسامعه نكتة مضحكة ...

عاد يسألها :

"وأنت أيضًا مثلي شبح، أليس كذلك؟!.. يا إلهي.. ولكن أين الجحيم والنار أو حتى الجنة.. مع أني صدقًا لا أستحقها...."

ردت عليه :

"لماذا تتوقع دخولك الجحيم؟.. فرحمة الله وسعت كل شيء...."

فقال لها:

"أنـا خائـف مـن لقـاء اللّه.. أجـل أحبـه مـن كل قلبـي.. ولكنـي أخطـأت كثيـرًا في حياتـي.. كـم أكـره نفسـي لمـا فعلتـه....."

وسـكتت روحـه قليـلاً ثـم عـاد يخاطـب روحهـا.. التـي لازالـت تجلـس علـى السـرير بجانـب الجثـة المشـوهة :

"وأنت ماذا عنك؟.. كيف تحولتِ لشبح؟.. كيف مت؟....."

فاختفت الابتسامة الواسعة عن شفتيها وهي تجيبه:

"كنـت أجـري عمليـة جراحيـة لا أذكـر مـا هـي، ومـت.. هكـذا بمنتهـى البسـاطة».

فسألها: «هل كنت مريضة؟....."

فأجابته كاذبة وهي تمثل عليه التأثر بمأساة مزيفة لم تعشها يومًا:

"طـوال عمـري كنـت فتـاة مريضـة، وكـم تحملـت مـن الآلام.. التـي لا تحتمل".

كذبـت عليـه كعادتهـا.. لـم تخبـره أنهـا كانـت تقـود سـيارتها مسـرعة وكأن الشـيطان ذاتـه يتبعهـا.. فقـط لتتلـذذ بنشـوة القيـادة المسـرعة.. واصطدمـت بسـيارة أخـرى، ومـات أخوهـا الـذي كان يجلـس بجانبهـا في السـيارة.. في لحظـات قليلـة.. محترقًـا.. أمـا

هـي فقـد أخرجهـا رجـل شـهم مـن سـيارتها قبـل أن تنفجـر بأخيهـا الصغيـر بثـوانٍ معـدودة.. والـذي انفجـرت بـه السـيارة وتحـول لجثـة مشـوهة ممـددة علـى السـرير الـذي تجلـس علـى حافتـه الآن وتهـز قدميهـا بـلا مبـالاة وهـي تتكلـم...

فابتسم في وجهها وهو يخبرها :

"يـا لحظـك الطيـب.. إذن سـتدخلين الجنـة.. هـل يمكنـك أخـذي معك.. أرجـوك....."

ابتسمت له في حسرة.. ابتسامة ضيقة وهي تتنهد قائلة :

"الـكل يطمـع في الجنـة.. ولكـن مـاذا فعلنـا لنسـتحق رحمـة الله والجنـة.....؟؟؟....."

فجأة شعرت ببرد رهيب يجتاحها، وبدأت تقول :

"كمـا أتمنـى لـو كنـت الآن في بيتـي مـع أخـي وأمـي وأبـي.. حيـث كنـا نجتمـع في مثـل هـذة الليلـة البـاردة حـول المدفـأة.. ونشـاهد النـار الذهبيـة تقبـل قطـع الخشـب وهـي تحتضنهـا؛ فيحتـرق الخشـب خجـلاً.. ونتكلـم.. ونضحـك.. وأمـي تعـد لنـا طعامًـا مـن الجنـة.. بـه طعـم حبهـا لنـا.. كل شـيء كان بخيـر وقتهـا.. حتـى شـكلي كان أجمـل....."

في تلك اللحظة تأملتها عينيه البنية الواسعة.. وتفحصت ملامحها.. فوجدها كاملة الجمال.. وكأنها لوحة لفنان عربي يرسم بدمه ومشاعره.. على نسيج حريري ناعم.. فقد كانت بشرتها عاجية صافية ووجهها به شقاوة وجمال يأخذ العين والقلب.. أما عينيها.. كانت تشبه عيني نمر بري.. وشعرها طويل ممـوج.. به موجة بحر متمردة.. لها جسد لا عيب به.. سوى تناسقه الزائد ...

قطع حديثهما صرير فتح باب الغرفة، ودخول ثلاثة رجال معهم سرير طبي نقال له عجلات تسمح بتحريكه بسهولة.. وفي غمضة عين فتح أحد الثلاثة رجال أحد الأدراج التي بها الموتى، وأخرج منها جثة.. ووضعها الثلاثة رجال بعناية على السرير، ثم بدأوا بالتجهيز لتغسيل تلك الجثة ...

كان المشهد مهيبًا !

حيث إنسان عارٍ تمامًا.. لا حول ولا قوة له.. يتم تغسيله من قبل غرباء عنه.. دون أن يشعروا بالتعاطف مع حاله، مع ضعفه، مع رهبته من وقوفه أمام الرحمن.. يحمل جبالاً من الذنوب والمعاصي.. التي ظن يومًا أنها صغيرة وهي عند الديان عظيمة...

اقترب الاثنان من السرير النقال؛ ليتفاجأ أن الجثة لأحدهما !!!

إنها جثتها هي ..

بكت من الصدمة فورًا.. وهي ترى نفسها في تلك الحالة الصعبة على روحها، وهي التي طالما اغترت بجمالها وحسنها، وأفرطت في التزين والتعطر وجذب الأنظار لها.. ولم تعد قدماها قادرة على حملها فجلست على الأرض القرفصاء.. تبكي بحسرة وندم ...

جلس بجانبها على الأرض.. محاولاً تهدئتها.. ولكنها كانت منهارة الأعصاب والروح.. فاحتضنها من الخلف بمنتهى الحنان.. وبدأ يمازحها :

"أنا أعلم لماذا تبكي؟.. فقط أنت معترضة على نوع «الشامبو».. الذي يقومون بغسل شعرك الجميل به.. أليس كذلك أيتها الفاتنة؟!....."

وابتسم لها برقة.. فابتسمت بدورها وقالت له من بين دموعها :

"أنا فعلت بنفسي هذا.. ما أغباني.. كم أكره نفسي.. أنا قتلت أخي ثم.. لأنسى ذنبي قتلت نفسي بالمخدرات ....."

قاطعها :

"ولكنك قلت أنك وأخيك.. قتلتما في حادثة سيارة؟!....."

بدأت تحكي له الحقيقة القاسية على قلبها :

"لقد كذبت عليك.. هذه أنا.. دااااائمًا أكذب عندما أخاف الاعتراف بالحقيقة".

ضمها إليه أكثر، وجلس بها بعيدًا قليلاً عن مكان تغسيل جثمانها.. قربها منه أعاد إليها شيئًا افتقدته منذ زمن.. اسمه الطمأنينة.. فبدأت تحكي له :

"منذ عامين كنت أقود سيارتي الجديدة وكنت مسرعة كعادتي وكان أخي الأصغر والوحيد، يجلس بجانبي، وفي ثانية اصطدمت سيارتي بسيارة نقل كبيرة، ومات أخي وماتت روحي معه، فقد كان قطعة من قلبي وروحي تتحرك على الأرض.. كان صديقي الأقرب والوحيد.. كان فارسي الصغير الذي يحميني طوال الوقت حتى من نفسي.. لقد ركب معي يومها السيارة؛ لخوفه عليّ من سرعتي في القيادة.. واستسلمت لصديقتي التي عرفتني كيف

أنسى همي ومصيبتي وإحساسي بالذنب.. بمخدر قتلني بالتدريج بعد أن جعلني الإنسانة الأسوأ على الإطلاق التي يكرهها الجميع لسخافة طباعها ......"

سكت لحظة ثم قال لها أيضًا:

"أنا أيضًا.. قتلت نفسي مثلك.. فأنا طوال الوقت كنت أشعر أني كهل، وكأني لم أكن يومًا طفلاً أو مراهقًا.. أنا ولدت كهلاً أحمل هم الكون بأسره، بذلت كل شيء بحثًا عن السعادة.. وفشلت كعادتي ....."

ثم سكت لحظة وتابع بابتسامة :

"أتدري شيئًا.. كم أتمنى لو كانت لنا فرصة ثانية.. كنت أحببتك ثم تزوجتك.. ثم جعلتك الإنسانة التي تحمل ابتسامة دائمة وقلبًا سعيدًا ...."

ابتسمت لكلامه وهمست له :

"صدقني لو رأيتني قبل تلك اللحظة لكنت كرهت نفسك.. قبل أن تكرهني.. كم كنت أتصرف بقلة خبرة وسذاجة وغباء....."

فقال لها:

"أنا مثلك.. خربت حياتي وحياة أخرين....."

برغم مأساوية الموقف إلا أن كلاً منهما وجد عزاء في البقاء مع شبح روح الأخر.. وبدأ يغني لها وهو مازال يحتضنها لتهدأ ...

وفجأة اختفت من جانبه، وشعر ببرد يجمد أوصاله حتى يده التي كانت تقبض على يدها، فتحها ليجدها فارغة من يدها، فجن جنونه وبدأ يبحث عنها في محيط المكان الموجود به؛ ليكتشف أنه لازال في شقة صديقه التي كان يتعاطى بها المخدرات لساعات طويلة، وأنه بمجرد أن فقد الوعي، شاهد هذا الحلم المخيف حيث هو مجرد جثة في ثلاجة الموتى، حتى الفتاة كانت جزءًا من حلمه...

دقت الساعة الثانية عشر لتعلن ميلاد عام جديد.. فوقف مسرعًا فرحًا بنجاته، وقرر مغادرة تلك الشقة الملعونة إلى الأبد، فقد عرف نهايته البشعة إذا دخل تلك الشقة مرة أخرى.. وفي طريقه إلى باب الشقة، شاهدها نائمة فاقدة الوعي على أحد الكراسي.. نفس الفتاة التي وقع في غرامها في الحلم.. فحملها فورًا؛ ليهرب بها بعيدًا عن هذا الجحيم بعد أن ألقى نظرة قرف على باقي الشباب المخدر والنائم على الأرض أو فوق كرسي في أحسن الأحوال ...

القمر كان مكتمل الجمال في السماء.. حتى النجوم كانت سعيدة حوله.. كل شيء كان مثاليًا.. لليلة يعود فيها الإنسان لإنسانيته.. فبمجرد أن خرج بها من ثلاجة الموتى أو شقة صديقه ذات الهواء الأزرق القاتل المسموم، وتنسمت.. نسمات هواء الشارع الباردة المنعشة والتي امتزجت برائحة عطره وحنانه.. أفاقت قليلاً.. وبدأت تنظر له.. نظرات طفلة ضائعة.. في عالم غامض مخيف.. هو فقط به مصدر الأمان.. وبرغم أنها لا تعرفه ولم تلاحظ وجوده من قبل إلا أنها شعرت أنها معه ستكون بخير.. وشعورها بالطمأنينة، وهي نائمة بين ذراعيه، جعلها تعود لنومها مرة أخرى.. حتى دون أن تفكر سؤاله: «من أنت؟.. وإلى أين تأخذني؟.....»

ذهب بها إلى أقرب مستشفى حيث بدأ علاجهما من السم الذي يسكن جسدها وجسده.. وكلما تألم أحدهما في أي من مراحل العلاج.. كان الأخر يمنحه جرعة حب تخدر كل ألمه ...»

انتهت قصته.. وهي كانت في عالم أخر.. عالم تعرفه لأول مرة.. فهي للمرة الأولى تنام وبجانبها شخص قادر أن يحميها.. فدخل حمزة عليهما وبهدوء جر كرسي أستاذه المتحرك خارج الحجرة ...

●●●

٦-العاري الأعظم

ما لم يخطر على بال رهف أن الجثث التي يتم دفنها في الأسمنت يصيبها غالبًا التعفن في الأعضاء الداخلية ولكن ببطء.. لأن البكتريا اللاهوائية تعمل حتى في غياب الأوكسجين.. ويتأثر الجلد الخارجي وقد يجف.. ولكن بصفة عامة يتأخر تحليل الجثة عن المعدل الطبيعي لتحليها عند دفنها بالصور المتعارف عليها ...

"كلما تأملت نفسي في المرآة ذات الإطار الأسود العتيق.. التي تحمل الأخشاب المصنوعة منها عطر رطوبة تأكله في صمت.. شعرت بفزع.. فأنا أرى أمامى مخلوقة مشوهة البنيان.. مترهلة الملامح.. تعيسة النظرات.. كئيبة الابتسام.. صاخبة الصوت.. مطموسة المشاعر.. وهنة الوجدان.. فكل جميل بداخلها مات أو انتحر؛ ليمحو ارتباطها من بعيد أو قريب به !!!

وأجد نفسي مرغمة أخبئ عيني بكلتا يدي سريعًا.. حتى أهرب من صورة المسخ الدميم الذي تعكسه المرآة لي على أنه صورتي.. على أنه أنا.. وأتحسس طريقي في الظلام الذي فرضته على عيني بعد أن أغلقتهما بإحكام مؤلم إلى ملابسي التى أرتديها، وأخلعها.. قطعة.. تلو القطعة.. حتى أصير تمامًا كما ولدتني

أمي.. بلا أي شيء يحميني من نفسي.. من «أنا».. أصير عارية تمامًا.. وسريعًا أجلب كرسيًا أقف عليه.. أمام المرآة.. فيظهر في المرآة جسدي العاري فقط.. ولا تظهر رأسي.. لأن طولي يكون بعد وقوفي على الكرسي أمام المرآة.. أكبر من طول المرآة رغم أنها تزيد عن المتر ونصف.. وترتفع عن الأرض بعدة سنتميرات قليلة.. فيظهر جسدي العاري فقط.. جسد لا عيب به ..

جسدي هو كمال الجمال دون مبالغة.. أو زيادة عن الحقيقة.. دون رأسي التي تحمل عيني، مرآة روحي.. التي عكست كيف أرى نفسي.. أراها وحشًا دميمًا» !!!

وسالت الدموع من عينيها.. وخرجت مسرعة من حجرتها.. هربت من المرآة.. بعد أن سترت جسدها.. وسترت أفكارها المرعبة عن إنسانيها التي ضاعت بعد أن مارست القتل لأول مرة في حياتها ...

ووجدت نفسها تفكر به ستين مرة في الدقيقة.. صوته وهو يروي لها قصته.. ليعلمها الحكمة والحب.. لازال يرن في قلبها.. وتشعر به كنبض جديد في قلبها الميت.. أو الذي كانت تظنه هكذا.. فمنذ غادرت بيت دكتور مالك وهي شخص أخر.. شخص ولد بداخلها بعد أن نام الشر ورغبتها في القتل.. قليلاً.. ربما لم

يشفِ الغل من صدرها.. ولكن لم يعد بنفس التوحش والعنفوان داخل وجدانها !!!

كانت تريد أي حجة لتدخل بيته مرة أخرى بعد أن قضت به يومًا وليلة في رعاية مشددة من كل أهل البيت.. وإن كان دكتور مالك لم يبتسم في وجهها ولا مرة حتى وهي تودعه مغادرة.. وإنما توقف فقط عن نظرات القرف والازدراء التي كان يرمقها بها وهو يتأملها وهي ثملة.. منهكة القوى من الرقص طوال الليل.. وشملها بنظرة شفقة يلقيها الإنسان على جرو صغير جريح.. وهذا أهانها أكثر وحطم كبرياءها ...

هو فوق كرسيه المتحرك.. الذي يعجز عن دفعه وحده كان أقوى منها ألف مرة وهي التي أزهقت خمسة أرواح مع سبق الإصرار والترصد!!!.. كانت خائفة منه، وكأنه والدها أو شيء أقوى.. وهي التي كانت تراه للمرة الأولى في حياتها.. هذا الرجل به سر.. به شيء غامض يجذبك نحوه كالمغناطيس، ويجعلك تطيعه.. بإرادتك.. أو خوفًا منه.. ولكن كيف تخاف منه وهو غير قادر على إيذائها.. وهو المريض حبيس كرسيه المتحرك.. ولكنها لم تستطع أن تنكر رعبها عندما ألقت عينيها بعينه.. فالعين نافذة الروح.. ومن الواضح أن روحه في منتهى القوة ...

بعد يومين رن جرس باب القصر الرئيسي.. فقد جاء حمزة ولمياء لزيارة رهف والاطمئنان على صحتها.. ولم يكن هناك الكثير من الضيوف يأتون لزيارة الثلاث بنات.. سوى بعض صديقاتهن المعدودات على أصابع اليد الواحدة.. وعلى فترات متباعدة.. ولذلك كان ترحيب البنات الثلاث بهما كبيرًا، وكن سعيدات حقًا.. باهتمام أحدهم بزيارتهن ...

سلة الفاكهة التي كانت تحملها لمياء.. كانت ذات رائحة فواحة وشهية.. أما الورود التي حملها حمزة لرهف.. كانت حمراء زاهية.. منعش للعين رؤيتها ومبهج لمس خودها.. وأصرت رهف على بقائهما للعشاء.. ولكنهما اعتذرا لأن دكتور مالك في البيت وحده.. وانصرفا بعد قضاء ساعة كاملة مع رهف وأختيها ...

وعندما مدت رهف يدها لحمزة مصافحة وداعًا.. جذبها إليه برفق وهمس في أذنها :

"دكتور مالك.. ينتظرك غدًا في العاشرة صباحًا».

سألته وهي تخفي ذهولها وتعجبها في ابتسامتها التي اتسعت دون مبرر :

"لماذا.. خيرًا؟؟؟ ....."

"لا أعرف صدقًا.. ولكن مع دكتور مالك الإدريسي.. حتى الشر خيرًا".

في الصباح استيقظت في الثامنة.. كان يوم «جمعة».. لم تعرف ماذا ترتدي.. كانت تريد أن تبدو أمامه قوية وحازمة.. كانت تريد أن تمحو من عينيه نظرته لها على أنها فتاة مستهترة بلا هدف في الحياة.. ولكنها عادت لنفسها؛ لتواجه نفسها بأنها أسوأ من أي اعتقاد قد يعتقده عنها.. فهي روح آثمة.. تقتل لتبقى على قيد الجحيم.. فلم يعد هناك حياة لأمثالها من «المستذئبين» !!!

غالبًا الناس تصافحك بيدها.. ولكن هو صافحها بنظرته الآمرة بأن تجلس جانبه على حافة سريره صامتة.. بلا حراك كتمثال شمعي يتضرع للفنان الذى ينحته أن يكمل نحته برفق دون أن يؤلمه أكثر.. وجلست بجانبه تنتظر الرحمة التي لم تعد تستحقها ...

أنهى الشيء الذي كان ينظر له في «اللاب توب».. الذي كان يضعه على قدميه الممدة حيث كان دكتور مالك جالسًا على سريره ورهف بجانبه تختلس النظر له.. ثم نظر مباشرة في عينيها وقال بلهجة من اتخذ القرار :

"عرفت من حمزة أنك طالبة في الجامعة.. بكلية الهندسة.. في السنة الثالثة.. ولكن أنتِ تحتاجين عملاً بسيطًا بجانب الدراسة.. ولذا قررت أن تعملي عندي فقط ساعتين يوميًا طبعًا مقابل مبلغ من المال.. أنا أقوم ببحث علمي.. وأحتاج منك كتابته ومساعدتي به من خلال البحث على الإنترنت.. لا أظن أن هناك سببًا للرفض."

هي تشعر أنه يريدها بجانبه ليربيها.. ولكنها فعلاً تحتاج المال.. حتى ترتاح قليلاً من القتل والتخدير والدفن وجلب الضحية.. ونظرت له وتمنت قتله.. لماذا يسيطر على روحها هكذا.. لماذا ستطيعه حتى لو أمرها بقتل نفسها؟!.. وقالت دون مقدمات :

"أنا موافقة."

ولم تبتسم له.. ولم يبتسم لها ...

في تلك الليلة دخلت حجرتها الفسيحة مبكرًا حتى قبل موعد العشاء.. وبقيت في سريرها مخملي المفروشات تنظر لسقف الحجرة التي أطفأت أنوارها جميعًا إلا مصباحًا صغيرًا بجانب السرير.. عصفت برأسها الأفكار التي تأمرها بالابتعاد عن الناس حتى لا ينفضح سرها.. هي خائفة من القبض عليها يومًا وإعدامها.. وهي تعلم أن هذا مصيرها المحتوم جزاء ما فعلت..

فقتل خمسة أرواح ليس بالأمر الهين.. والشيء الوحيد الذي ستر جرائمها حالة الهرج والمرج التي تعم البلاد وتقلص دور الأمن.. ولكن يومًا ما قد يكتشف صنيعها وتحاكم بلا رحمة!

وفكرت لماذا لا تعمل هدى لدى دكتور مالك بالنيابة عنها.. وهي يكفيها دراستها المتطلبة.. وأختها ليس لديها ما يشغلها ويمكنها أن تعمل عنده عدد ساعات أكثر من الساعتين التي اتفقت معه عليهما وتجني مرتبًا أكبر يكون دخلاً لا بأس به للبيت.. ونزلت السلالم مسرعة للدور الأرضي لتتحدث مع أختها الكبرى بالموضوع:

كانت هدى تجلس أمام التلفاز تشاهد أحد المسلسلات التركية وفي نفس الوقت تقلم أظافرها الوردية، أما ملك فكانت تجلس بجانبها تلهو بدميتها في براءة وعدم إدراك للموقف من حولها :

"هدى لدي خبر جيد لك.....» قالت رهف في محاولة لجذب انتباه أختها الكبرى.. ومضت لحظات قبل أن ترفع هدى نظرها أخيرًا عن أصابع قدميها التي تطليها باللون الوردي الغامق وترد على رهف في برود :

"خيرًا يا حبيبة قلبي ....."

"وجدت لك عملاً قريبًا من البيت وبمرتب جيد.. سيكون كدخل لا بأس به حتى أتخرج من الجامعة وأعمل أنا أيضًا فقط عليك أن ....."

قاطعتها هدى في حدة عمياء :

"أنا لا يمكنني العمل وترك ملك والبيت وحدهما.. هل نسيتي أني أتولى كل مسئولية البيت وحدي.. من طبخ إلى تنظيف إلى غسيل الملابس.. وماذا عن رعاية ملك.. هي مسئولية كبيرة أيضًا ....."

كادت رهف أن تخنقها وهي تستمع لأكاذيبها عن الطبخ ورعاية ملك ولكنها ابتلعت غضبها قليلاً وقالت لها :

"هدى.. خروجك للعمل ضرورة قصوى نحن نحتاج المال.. أنا منذ أكثر من عام وأنا أفعل المستحيل لأوفر المال.. وأنا أطلب منك مساعدتي قليلاً في تحمل مسئولية البيت فقط حتى تخرجي من الجامعة.. فلم يبقَ لي في الجامعة سوى عام دراسي واحد وأحصل على شهادتي ....."

فقالت لها هدى بغضب وصوت عالٍ :

"أنتِ وقتها ستكونين مهندسة ومعك شهادة جامعية، وأنا ماذا سأستفيد؟.. لا شيء.. من فضلك يا رهف اتركيني لحالي ولقلة حظي».

ثورة غضب رهف كانت عاصفة وهي تصيح من بين أسنانها في وجه أختها قائلة :

"أنتِ لا تزيدين عن كيس قمامة كبير معلق في رقبتي.. لا نفع منك.. لا تحبين إلا نفسك ولا تعيشين إلا لإرضائها".

لم ترد عليها هدى وعادت تشاهد التلفاز في برود وكأن شيئًا لم يحدث.. وكأن لا أحد يخاطبها!!!.. أما ملك فكانت ترتعد خوفًا من شجار أختيها بصوت عالٍ.. فضمتها رهف بتحنان، وأخذتها لتطعمها وتضعها في سريرها ...

في الشارع المصري.. لم يكن الناس مؤهلين نفسيًا لفكرة أن يحاكم رئيس بلد حكمها لمدة ثلاثين عامًا بطريقة الفرعون الذي خيل له ذات يوم أنه إله! له الحق في أن يحيي ويميت، فكان الناس بين فرح بسقوط الفرعون الطاغية وهم الأغلبية العظمى من الشعب المقهور وبين متعاطف معه وهم قلة قليلة غير واعية، فهم كالمجني عليه الذي يتعاطف دون إرداته السوية مع الجاني.. وهذا يقول عليه علماء علم النفس بأنه نوع معروف من الخلل النفسي،

وبين متعجب من الموقف كله وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًا لا دخل له بأحداثه.. سوى الفرجة من بعيد.. وتلك الفئة المغيبة نتيجة الفقر الشديد أو الإدمان.. أما الفريق الرابع وهو الفريق الذي كان يستفيد من فساد نظام مبارك.. وكان مصيرهم الحزن والهلع !!!

مارس .. ٢٠١٢!

في الصباح التالي.. توجهت رهف بوجهها بريء القناع، عديم الإنسانية، لجامعتها تحمل بين يديها كتبًا تحمل عناوين ما تدرسه في كليتها من علوم.. فبين زملائها هي الطالبة الصامتة التي لا تتحدث معهم سوى للضرورة القصوى.. صديقتها الأقرب لها ليس لها وجود.. فهي لم تتخذ سوى نفسها الغاضبة حد السماء صديقة! ...

ورغم حاجتها الجسدية لرجل.. فهي لم تسمح لأي من زملائها الشباب في الجامعة بالتقرب منها.. فنظرتها لهم أشبه بنظرتها للصبية الصغار.. فهم من مثل عمرها أو أكبر قليلاً.. وهي تريد رجلاً.. له مواصفات ترضي عطش نفسها «المستذئبة»...

وعادت في الثالثة ظهرًا إلى قصرها الذي يبدو من بعيد جنة هادئة بعيدًا عن حال البلد التي يقبع بها.. والتي حولتها الثورة إلى بركان غاضب لا تسكت به المظاهرات والاحتجاجات والتي

غالبًا تنتهي بدماء الشباب بعد كسر خاطرهم وتحطيم أحلامهم البريئة.. ووجدت هدى قد قامت بدورها على أكمل وجه من تنظيف القصر إلى إعداد وجبة بسيطة من المعكرونة والبطاطس المحمرة للغداء.. فالميزانية لم تسمح بشراء اللحم.. وبعد الغداء.. تفرق الثلاث أخوات كلٌ إلى حجرتها.. فاستلمت رهف النوم حتى السادسة مساءً ثم نهضت متعبة من فراشها الدافئ لترتدي ملابسها وتتوجه إلى بيت دكتور مالك.. فهي ملك يمينه حتى يسمح لها بالانصراف.. وقررت أن تخدمه بمنتهى الطاعة وتنفذ تعليماته حرفيًا حتى تحصل على المال الذي تحتاجه الآن أكثر من أي شيء على وجه الأرض.. فهي تعبت من القتل للحصول على المال.. ولكن لم يؤلمها ضميرها ولم تندم على فعلها ...

دخلت على دكتور مالك حجرته بصحبة حمزة.. وظلت تنظر إلى وجهه الصارم منتظرة أي تعبير يدل على حالته المزاجية.. ولكنه ظل عاكفًا على جهاز الكمبيوتر المحمول الذي يضعه على ساقيه الممدة.. حيث يجلس على سريره نصف جلسة.. دقائق مرت ولا أحد يجرؤ على مقاطعته عما يفعله حتى حمزة.. كان في حضرة أستاذه صامت في خشوع كنائسي.. حتى رفع دكتور مالك رأسه بلا مبالاة بالموجودين حوله ووجه كلامه لحمزة في لهجة آمرة تعودها في الحديث :

"اذهب يا حمزة وأجلب لها شيئًا ساخنًا تشربه.. فالليلة باردة للغاية.. برغم أننا أصبحنا في شهر مارس ....."

قبل أن يخرج حمزة من الحجرة سأل أستاذه :

"وحضرتك.. ألا تريد شرب شيء؟ "

فنظر له دكتور مالك نظرة ذات مغزى.. فخرج حمزة من الحجرة ...

فتوجه دكتور مالك بالحديث لرهف قائلاً :

"كما ترين بعينك.. كل من يعمل عندي يفهم أوامري من مجرد نظرات عيني فأنا لا أحب التحدث كثيرًا.. دربي نفسك على ذلك ....."

فنظرت له رهف نظرة خبيثة وهي تلعن أختها التي لم تقبل أن تأتي للعمل عنده بدلاً منها وقالت صاغرة :

"لست معتادة أن يأمرني الناس.. ولكني أعدك أن أكون عند حسن ظنك.. أريدك فقط أن تشرح لي ما عليَّ فعله ....."

نظر لها نظرة مرعبة وهمس لها :

"سأدفع لك راتب ثلاثة آلاف جنيه شهريًا لتنفذي أوامري حرفيًا.. تحديدًا أوامري! ....."

وسكت.. وسكتت.. وتفحصته هي خلسة.. وهي تفكر لماذا سيدفع لها كل هذا المال شهريًا.. الذي يكفي كراتب لأربع أو خمس مثلها وأفضل منها علميًا ويقدمون له ساعات عمل أكثر منها بكثير.. وعندما نظرت له مليًا وجدته رجلاً مريضًا للغاية، إذن فهو لا يطمع بها كفتاة شابة جميلة، فما الذي يريده منها مقابل هذا المال الكثير.. ووجدت نفسها دون وعي منها تقول له بأدب جم لم تتعوده في حديثها :

"إذا كنت حقًا ستدفع لي هذا المبلغ شهريًا فأي شيء مسموح لك حتى إلقاء الأوامر والتعليمات مهما كانت ....."

فابتسم هو ابتسامة نادرة وقال لها :

"فكري قليلاً.. فربما لا تطيقين ما سأطلب ....."

فتسرعت في الإجابة :

"أي شيء مقابل المال سأفعله.. فأنا مسئولة عن أختاي وعن مصاريف البيت وحدي».

عرف أنه سيطر على وحشها قليلاً ولكنه حتى الآن لم يقتله!

فتابع بعد أن اختفت الابتسامة اليتيمة التي ظهرت على وجهه للمرة الأولى منذ عرفته قائلاً :

"والآن أول أوامري أن تنصتي للقصة التي سأرويها لك الآن.. وتنصتي بوعي وإدراك.. ثم سأسألك بها.. اتفقنا؟! ....."

كان حمزة قد أعطاها فكرة عن نشاط دكتور مالك الفكري على وسائل التواصل الاجتماعي وخاصة الفيسبوك.. وأنه بجانب كونه طبيبًا فهو يملك موهبة كتابة القصص والشعر.. وينشر ما يكتب على صفحته الخاصة بالفيسبوك وله آلاف المتابعين المبهورين بكتاباته وهو ينشر ما يكتب باسم مستعار؛ نظرًا لكونه أستاذًا جامعيًا وطبيبًا شهيرًا.. فكان ينشر باسم «القلب الصالح»!.. وتعجبت هي من أمره، فهل سيدفع لها كل هذا المال لتسمع حواديته التافهة وأشعاره السخيفة.. ما أسهله من عمل.. فهزت رأسها موافقة مع ابتسامة واسعة ...

دخل حمزة يحمل لها كوب لبن ساخن محلى بالعسل الأبيض ومضافًا إليه بعض قطع الشيكولاتة البيضاء المقطعة صغيرًا.. كان الخليط حلو المذاق.. وهي لم تجربه من قبل.. وشعرت أن السماء أرسلت لها هذان الأحمقان.. أحمق يهتم بصحتها.. وأخر يسليها بحواديته.. وجلست هي وحمزة بجانب دكتور مالك على طرفي سريره يستمعان له.. فبدأ يستعد ليحكي لهما بصوته الرخيم.. ولكن لمياء أخته دخلت فجأة عليهم وقالت وهى تتنفس بصعوبة وكأنها كانت تجري :

"كنت سأخاصمك يا مالك لو بدأت قصتك الجديدة دوني.. هيا أخي الحبيب.. احكِ لنا وأمتعنا ....."

وفجأة انقطع التيار الكهربائي.. كما صارت العادة مؤخرًا في البلاد.. فأضاء حمزة عدة كشافات حول سرير دكتور مالك واجتمعوا هم حوله وبدأ هو يحكي قصته:

"أسطورة: «العاري الأعظم» "

بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد، منحك الله العمر المديد.. وذلل لك كل عنيد.. وأدام حبك في قلوب رعاياك يجري في الوريد.. ووهب لك من الخيل المسومة ألفًا ويزيد.. ونلت من العلم كل مفيد وجديد أنه.. ثم ابتسم دكتور مالك لرهف وأكمل :

" أنه في الزمن الغابر، وربك للقلوب جابر، كان هناك رجلاً رشيدًا اسمه «سعيد»، كل من يراه يغرم بحديثه حتى لو كان قلبه صيغ من حديد.. اشتهر بين الناس بحلاوة اللسان وحسن البيان والحكمة والعلوم.. حتى أحبه القوم... وذكره الذاكرين عند الملك، فطلبه الملك لمجلسه، وتحدث معه، وعندما رأى منه الحكمة الخالصة، جعل منه جليسه...

وكل الخير في اتخاذ الملوك أخلاء، كما أن كل الشر في اتخاذ الملوك أخلاء.. فالملك إذا أحب، وهب بلا سبب، ولكنه إذا خاصم جعل عالي المقام ذليلاً للئام ...

ومن ملك لملك ذاع الخبر في كل البلاد، وتداولت الألسن خبر الرجل الحكيم الذي لا ينطق سوى كلمات لا تقدر من فرط حسنها، سوى بالذهب والماسات النادرات.. وصار كل ملك يرسل في طلبه إذا أرد الحكمة والمشورة والرأي الصائب في أمور مملكته...

وبعد أن كان هم الملك وشاغله الأكبر إرضاء زوجته رائعة الجمال حتى تمنحه ليالي سمر وحب حتى الصباح، صار كل ليلة يجلس مع جليسه، الذي يأخذه إلى أكوان أخرى لم تطأها أفكاره من قبل، كان يحكي له عن كل العلوم، ويحدثه عن أخبار السابقين، وكيف قد يكون حال القادمين لهذا الكون الفيسح.. كان يطير بالملك بكلمات الحكمة، ويسمعه أروع وأصدق كلمات الحب للعاشقين للحب والجمال.. للعاشقين لنور الرحمن وهدي «رسوله الكريم» صلى الله عليه وسلم ...

وغارت الزوجة من فرط اهتمام الملك بجليسه، وملت وحدتها القاسية، فالملك، كل ما لها في الحياة من أمل وسند.. وقررت البحث عن وسيلة أو حتى حيلة؛ لتبعد الملك عن جليسه، هذا الشاب الحكيم الذي يقطر حكمة ألف ألف كهل ...

وقررت أنها ستذهب إلى هذا «الجليس»، وتحاول رشوته بالمال ليبتعد ولو قليلاً عن سيدها ومولاها الملك.. واتخذت الليل ساترًا؛ لتنفيذ خطتها وذهبت إليه ...

دخلت حجرته خلسة بعيدًا عن أنظار الحرس والتابعين، ووجدت بها من الكتب صفوفًا فوق صفوف، وجلست تنتظره، وعندما طال عليها الأمد، بدأت تعبث بأحد الكتب.. وجذبها الكتاب الذي كان يحكي عن «العشق الإلهي»، وهامت في حب الرحمن بين أسطر أشعار المتصوفين والعاشقين للملأ الأعلى والذات النورانية ...

ودخل عليها.. فهمت به، وهم بها، لولا أن عرفته فورًا بنفسها، بأنها زوجة الملك، وقبل أن تنطق وتعرض عليه رشوتها كي يبتعد عن زوجها الملك، كان هو قد منّ الله عليه وبدأ يتحدث إليها بما أتاه من علم وحكمة ويقين.. وسحرها كما سحر زوجها.. ولمست كلماته البسيطة في حب الله شغاف قلبها، واستقرت أسيرة روحها...

وتعددت الليالي التي تخصصها فقط لتسمع كلمات الحكمة والحب من «جليس الملك» حتى وشى الواشين بهذا الحديث إلى الملك، وأضافوا إلى الحقيقة، وشوهوها حتى غار الملك وثار لكرامته التي في الحقيقة لم تمس.. ولكنه ألقى أذنه للغو وخبيث الهمس ...

وحلفت له الزوجة أنها بريئة.. وأنها لازالت المحبة الطاهرة التي على راحة مولاها ساهرة.. فقرر الملك عقابها بدوام الحبس.. في حجرتها حتى تموت وحيدةً ...

أما جليس الملك فكان عقابه شديد.. أقوى وأشد ألمًا من الكي بالنار والحديد.. فقد أمر الملك بنزع كل ملابس «جليسه»، وأصدر أمرًا بتحريم وتجريم إعطائه ما يستر جسده أو حتى عورته حتى يموت خجلاً وبردًا، وهو يجري عاريًا في البلاد؛ عقابًا على ذنب لم يقترفه، وهو كما يظن الملك مغازلة زوجته ...

وفي ساحة القصر، نفذ حراس الملك العقاب، ونزعوا ملابس الشاب الحكيم، ثم طرده الملك من قصره عاريًا تمامًا كيوم ولدته أمه ...

وبين السعي والهرولة، خرج الشاب لا يعرف إلى أين وكيف يستر عورته التي تلاحقها أعين عامة الناس بوقاحة، وكأنه لا عورة لهم هم أيضًا.. وكأنهم ولدوا منزهين عن العورات ...

وكلما جرى قتلته أعين الناس وهي تتبعه وكلماتهم القاسية، فالكل نسي حكمته وعلمه بمجرد أن نزعت عنه ملابسه، فهل كانت ملابسه فقط هي ما يجعل الناس تحترمه وتبجله؟.. أم شيء أخر يسكن نفسه.. وهي روحه الطيبة الحانية الزاهدة في كل شيء إلا حب الله ...

وأخيرًا.. وصل إلى بيته القديم.. ووجد أجزاء منه قد تهدمت من الأمطار الأخيرة التي حدثت في البلاد.. وللحظة فكر عليه أن يصلح بيته حتى يحتمي به من قسوة نظرات الناس.. ولكنه لكي يعيد إصلاح بيته عليه أن يستخدم كلتا يديه التي يحمي بهما عورته من عيون الناس التي تراقبه بتشفٍ وسخرية، فهم يرون فيه ساكن القصور الذي عاد ليكون مثلهم بسيط الحال ...

ونزع يديه.. فإذا عورته واضحة لكل ناظر دون حجاب، وبدأ الناس يجتمعون حوله أكثر فأكثر في تأمل مهين لجسده جميل البنيان ...

كان عليه جمع بعض الأخشاب؛ ليتم إصلاح داره البسيط، ولكن وجود الناس حوله بدأ يضايقه للغاية، فقرر أن عليه إشغالهم عن تأمله، وتتبع عوراته، وبصوته العذب الذي ينزل على القلوب كطراوة قطرات ندى الصباح، أنشد يقول :

" إلهي لا تعذبني "

"إِلهـي لا تُعَذِّبنـي. ●●● فَإِنّي مُقِرٌّ بِالَّذي قَد كانَ مِنّي

وَما لـي حيلَةٌ إِلا رَجائـي ●●● وَعَفوُكَ إِن عَفَوتَ وَحُسنُ ظَنّي

فَكَم مِن زلَّةٍ لي في البَرايا ●●● وَأَنتَ عَلَيَّ ذو فَضلٍ وَمَنِّ

إِذا فَكَّرتُ في نَدَمي عَلَيها ●●● عَضَضتُ أَناملي وَقَرَعتُ سِنّي

يَظُنُّ الناسُ بي خَيرًا وَإِنّي ●●● لَشَرُّ الناس إِن لَم تَعفُ عَنّي

أُجَنُّ بِزَهرَةِ الدُنيا جُنونًا ●●● وَأُفني العُمرَ فيها بِالتَمَنّي

وَبَينَ يَدَيَّ مُحتَبَسٌ طَويلٌ ●●● كَأَنّي قَد دُعيتُ لَهُ كَأَنّي

وَلَو أَنّي صَدَقتُ الزُهدَ فيها... قَلَبتُ لأهلها ظَهرَ المِجَنّ"

وشرد الناس مع الأشعار الرقيقة، وارتفعت أفئدتهم إلى سحاب محبة الله، ولم يكتفِ بما قال، ولم يسكت عنهم بل بدأ يحكي لهم من علمه وحكايات السابقين واللاحقين من أجناس البشر، والناس تسمع له في متعة وعجب، حتى نسوا عورته، ونسوا كونه يقف أمامهم كما ولدته أمه، بل صار البعض منهم يساعده في إعادة بناء بيته، وانتهى به الأمر فقط يلقي التعليمات على مسامع بعض الرجال، الذين قرروا مساعدته فيما كان يفعل...

وتم البناء.. وصار البيت أهلاً للسكن، فدخل بيته، واحتمى به من النظرات التي تتبع عورته.. أما زوجة الملك، فكانت وحدتها جنتها، فقد اتخذت ملكًا جديدًا ساكنًا لقلبها، ملكًا لا يظلم ولا يطرد من رحمته عاشق، فهو الرحمن الرحيم.. وباتت ليالي ساجدة شكرًا لعظمته.. حتى لاحظ الملك طيب سلوكها، وعفا عن نفسها.. وأعادها في قلبه.. لعظيم مكانها ...

ويبقى عامة الناس..

مازالوا يبحثون عن عورات أحدهم حتى يتتبعوها، وكأن لا عورات لهم، يسترها فقط ستر الرحمن لعبيده."

وبمجرد أن أنهى دكتور مالك قصته عاد التيار الكهربائي وأضاءت الحجرة المجتمعين بها الأربعة.. فقالت لمياء بصدق :

"أعجبتني جدًا القصة.. الحكمة منها غاية في الروعة.. سأذهب لأعد لكم العشاء.. مؤكد أنكم جوعى الآن."

وخرجت من الحجرة.. فتبعها حمزة ليساعدها في إعداد العشاء.. وبقيت رهف وحدها مع دكتور مالك فباغتها بسؤاله لها :

"ما الحكمة التي وصلتك من القصة رهف؟"

فأجابته مبتسمة :

"صدقًا لم أتعلم شيئًا ....."

وبدأت تضحك بصوت عالٍ ومزعج!

●●●

obeikan.com

٧-عد لقلبك تجدني

سألته دون اكتراث لملامح وجهه التي تجمدت فوراً من قولها:

"القصة بقلمك.. ولكن أبيات الشعر التي كانت فى الوسط.. كانت لمن؟ ..."

فرد عليها :

"لسيدنا علي بن أبي طالب.. رضي الله عنه ....."

فقالت له :

"لم أعرف عنه ذلك من قبل.. الكلمات بسيطة ولكن ذات مغزى أعتقد أنك تؤمن به!!! ....."

صار وجودها ليل نهار في بيت دكتور مالك شيئًا طبيعيًا كشروق الشمس كل يوم، فكل وقت فراغ لها كانت تقضيه معه تساعده في أبحاثه العلمية على الإنترنت وتكتب بالنيابة عنه ما يريد تسجيله وتجلب له الكتب من مكتبته وتضعها بين يديه.. وللحظات شعرت نحوه بما كانت تشعر به نحو أبيها.. بتلك الشفقة التي تجبرها على تقديم أفضل رعاية له.. ولكنها في منتهى الصراحة مع نفسها.. فهي لم تعد تملك مشاعر لأحد.. ولا تريد أن تملك مشاعر لأحد،

فالمشاعر ضعف ورقة.. هي ودعتها منذ أمد.. حتى أختها الصغرى ملك استصحبتها مرات عديدة معها إلى هناك وكم رحب بها دكتور مالك وحمزة ودللتها أخته لمياء باللعب معها وإطعامها أصناف غالية من الشيكولاتة والحلوة ...

كلمات دكتور مالك لها عن الله والجنة والنار وقصصه كانت تثير لديها آلاف الأسئلة.. ولكن كان السؤال الأهم لديها ماذا لو كان الله حقًا موجودًا وكان هناك ثواب في الأخرة أو عقاب أبدي إلى أن يشاء الله كما قال لها.. ودمعت عيناها للمرة الأولى خوفًا من الله.. فهي بلا شك روح آثمة قاتلة في النار للأبد !

في أحد الأيام.. وقبل أن تطرق باب حجرة دكتور مالك كعادتها قبل الدخول عليه.. سمعت صوته يصرخ في شخص أمامه :

"أنتِ بلا مشاعر.. بلا إنسانية.. امرأة غيرك كانت قتلت نفسها قرفًا من نفسها.. أنا لم أقتلك لأنك تافهة.. فيكفي أن تعيشي ما تبقى من حياتك مع عارك كامرأة ساقطة.. بلا شرف.. بلا ماء وجه.. طلاقي منك سيكون بلا رجعة.. لن تعودي لي ولو مقابل مال الأرض.. وشركتي لن تأخذيها مني.. والآن اخرجي من بيتي.. اذهبي له.. اذهبي للوضيع الذي يومًا اعتبرته صديقًا! ....."

وفتح باب حجرته أخيراً .. وخرجت منه عاصفة هوجاء في صورة امرأة.. كانت امرأة سمراء في الثلاثين من عمرها عسلية العنين ورشيقة القوام.. ولكن تحيطها هالة شريرة وكأنها مخلوقة من نار وغضب.. واصطدمت بكتف رهف في طريقها للباب.. فزجرتها رهف بنظرة استحوذت على اهتمام المرأة الأخرى التي بالغت في الاهتمام بملابسها ومكياج وجهها.. حتى في عطرها صاخب الشذى ...

كادت أن تدخل رهف حجرة دكتور مالك لولا أن جذبتها لمياء سريعًا من يدها .. وكأنها تمنعها من تفجير قنبلة موقوتة.. بدخولها على دكتور مالك وهو في تلك الحالة من الغضب الشديد...

وبعيدًا عن حجرة دكتور مالك جلست رهف مع لمياء، فباغتت رهف نديمتها في الجلسة قائلة :

"يبدو أن هناك شيئًا ليس على ما يرام يخص دكتور مالك.. ومن تلك المرأة التي كان يتشاجر معها كما يبدو من صوتهما العالي؟ ....."

احمر وجه لمياء خجلاً من الحديث عن مأساة أخيها مع زوجته.. وحاولت تغيير الموضوع قائلة :

"تلك زوجة أخي.. ولكن أخبريني رهف كيف حال دراستك؟.. أقصد أتمنى ألا يعطلك عن الدراسة والمذاكرة عملك مع أخي.. فكلية الهندسة دراستها صعبة للغاية.. أعلم.. ولذلك أقترح أن تعودي اليوم لبيتك لتذاكري.. فأنت قلت لي أنه لديك امتحان غدًا أو بعد غد على ما أذكر؟ .."

فورًا التقطت رهف ما ترمي إليه لمياء.. فهي تريد تجنيبها مقابلة أخيها وهو في حالة نفسية على ما يبدو يرثى لها.. فوقفت رهف في لحظتها استعدادًا للمغادرة، وهي تقول للمياء بلهجة شاكرة:

"أشكرك على تلك الأجازة التي حقًا أحتاجها للمذاكرة، فأنا تعودت التفوق كما وعدت أمي بذلك رحمها الله.. أرجوك بلغي شكري لدكتور مالك على تلك الأجازة.. وسوف أحضر غدًا بمجرد انتهاء محاضراتي في الجامعة.. وأكون تحت تصرفه حتى نهاية المساء.. إلى اللقاء لمياء ....."

قطرات المطر لها صوت.. كل يستقبله حسب حالته النفسية.. فالبعض يفزع ويحتمي فورًا من المطر والبعض يشاهده من بعيد من خلف النوافذ الزجاجية.. والبعض يحرره المطر من كل قيوده.. فيفعل كما فعلت رهف التي بمجرد أن بدأ المطر في الهطول

تركت المذاكرة في حجرتها الدافئة ونزلت فورًا إلى الدور الأول من القصر.. ثم خرجت حافية القدمين إلى حديقة قصرها الصغيرة التي تعتني بها هدى وتزرع بها كل ما يصل ليدها من أنواع الورود والفل والريحان ...

كان ثوب نوم رهف حريريًا مزينًا عند الصدر بشرائط ذهبية رقيقة، أبيض اللون كلون شفتيها من البرد.. ولكن ذلك لم يهمها.. ووقفت فاتحة للسماء ذراعيها.. تستقبل حنان السماء في صورة قطرات المطر.. ودون أن تدري وجدت ساقيها الرشيقة ناعمة الملمس تؤدي خطوات منتظمة أشبه ما تكون برقصة!.. ربما كانت رقصة الحياة التي أعادت الحياة قليلاً لقلب رهف الذي أماتته كثرة الذنوب.. الذي أماته بعده عن مصدر الحنان والرحمة الأعظم في هذا الكون.. الله.. ووجدت تلك الكلمات تتردد في نفسها وهي لا تفهمها أو حتى تعرف مصدرها.. «عد لقلبك.. تجدني!!!».

وخافت فجأة من كل شيء حولها.. من وحدتها تحت المطر وسط حديقتها ليلاً.. وتمنت لو أتى في تلك اللحظة أي إنسان واحتضنها.. وفكرت قليلاً.. هي لا تريد أي شخص هي تريد حنانًا ورحمة في صورة آدمي.. وفجأة اصطدمت بـ «حمزة».. بعينيه.. بالرجولة التي تقطر من ملامحه الجسدية.. وبين الحلم

والواقع تعلقت به وعضت بأطراف أصابعها البيضاء الناعمة على طرف الجاكيت الذي كان يتدثر به.. كان يهمس لها معاتبًا على وجودها تحت المطر في هذا الوقت.. ولكنها رفضت أن تسمعه وكالأطفال استمرت باللعب دون اكتراث لمحاولته جذبها بعيدًا عن المطر.. وفشل تمامًا في إدخالها البيت.. وظل مكانه هو الأخر يشاهدها، كأنه يشاهد مجنونًا فريدًا من نوعه يرقص بحركات دائرية طائفًا حوله.. منتشيًا بما يفعل!.. وثوبها الحريري قد التصق تمامًا بجسدها رائع التفاصيل !

صبر عليها خمس دقائق.. لعلها تزكى وتعود لرشدها وتدخل البيت.. وعندما وجدها لم تفعل ولن تفعل حملها عنوة وجسدها بين يديه يقطر ماء وأثارة، ويرتعش.. ودخل بها القصر وعندما لم يصطدم بأي إنسان في طريقه سألها بصوته النابض بالعشق :

"أين حجرتك؟ ....."

فأشارت إليها صامتة مستسلمة بين ذراعيه.. فصعد بها الدرجات المؤدية لحجرتها في الدور الثاني، وبرفق وضعها على سرير حجرة نومها ثم مسرعًا بحث بعينيه عن منشفة كبيرة وأحاطها بها.. ثم أحضر منشفة أخرى أقل حجمًا، واحتضن بها رأسها.. لو كان حمزة هم بها في تلك اللحظة لما وجد منها أدنى

مقاومة أو اعتراض ولكن الفكرة لم تخطر حتى على باله رغم كل هذا الحب الذي يسكن قلبه لها.. فتبسمت إليه وقالت له :

"أنت تذكرني بأمي.. حنون مثلها.. ولكن كيف أتيت إلى هنا.. لماذا خرجت في جو بارد كهذا.. هل دكتور مالك بخير؟ "

"رهف أنت مجنونة.. انظري ماذا فعلت بنفسك؟! ولا حتى الحمقى والأطفال الأغبياء يفعلون ما تفعلين بنفسك.. فهل تريدين قتل نفسك.. هناك طرق أسهل كثيرًا للانتحار!.. تأكدي أنك غدًا ستكونين مريضة للغاية.. هل نسيتي أنك مقبلة على امتحانات.. أنتِ كما قال دكتور مالك كارثة إنسانية متحركة! ....."

قهقهت عاليًا ضاحكة من قوله وردت عليه :

"دكتور مالك يكرهني من اللحظة الأولى التي قابلني فيها.. وبيني وبينك يا حمزة معه كل الحق!.. ولكن المهم طمئني على حال دكتور مالك، لقد ذهبت اليوم إليه ولمياء بذوق أخبرتني أني لا أستطيع مقابلته ومنحتني اليوم أجازة من العمل.. ولكني أشعر أنه في حالة نفسية سيئة بسبب شجاره مع زوجته.. أليس كذلك؟....."

تمتم حمزة دون وعي:

"زوجته.. تلك الحية التي تطمع في ماله وشركته.. و...."

وسكت حمزة وعلت ملامح وجهه نظرة ندم على قوله ما قال.. وهم لينصرف ولكن رهف قرأت أفكاره ومنعته من الهروب واحتجزته بنظراتها الفضولية التي تريد معرفة المزيد والمزيد عن دكتور مالك وتلك المرأة التي قابلتها اليوم في بيته ...

"يجب أن أعود رهف.. دكتور مالك مريض للغاية.. والدكتور طلب مني إعطاءه حقنة.. وكنت في طريقي لجلبها من الصيدلية ثم شاهدتك في الحديقة فخفت عليك من المطر والبرد.. سأذهب له.. وداعًا ....."

وفي لحظة اختفى من أمام عينيها التي اتسعت حدقاتها في محاولة لفهم الموقف ...

الصمت كان عنوان ملامح دكتور مالك.. وحمزة بجانبه يعطيه دواءه المر كأيامه العصيبة.. ولكنه كان في حالة حزينة من الاستسلام للأحزان المدمرة للروح ولبهجات الحياة تدريجيًا.. فليس كل صمت هادئ.. فأحيانًا صخب الصمت يكون غير محتمل أكثر من إزعاج ثرثرة الكلمات!.. وامتنعت نفسه عن الشهية للطعام والبشر ورؤيتهم.. وطلب من الجميع مغادرته حتى

أختـه الوحيـدة وحمـزة.. وطلـب منهـم منـح أجـازة مفتوحـة المـدى لـ «رهـف» ...

ثلاثة أيـام مـرت ورهـف ممنـوع عنهـا رؤيـة دكتـور مالـك.. فهـي امتنعـت عـن زيارتـه بعـد طلـب لميـاء منهـا ذلـك هاتفيًـا بأسـلوب مهـذب.. ولكـن رهـف قتلهـا الفضـول لتعـرف مـاذا حـدث لدكتـور مالـك؟!.. وكان تسـللها ليـلاً في الليلـة الرابعـة مـن غروبـه عنهـا.. ودخولهـا غرفتـه متسـللة مـن شـباك حجرتـه القابعـة في الـدور الأول مـن بيتـه.. وفي الظـلام الدامـس وبوثبة «نمرة» برية تحسسـت طريقها إليـه.. كان نائمًـا نصـف جالـس وسـط سـريره يبكـي.. وقتلتهـا دموعـه وصـوت أنينـه.. وفجـأة تذكـرت أمهـا.. فكـم بكـت أمهـا ليـلاً؟! .. ولكنهـا انتقمـت بالقتـل ممـن ظلمـت أمهـا.. ودون وعـي منهـا ضمتـه في الظـلام بـين أحضانهـا وظلـت تهدهـده طويـلاً ...

ومضت دقائق طويلة !!!

وأخيـرًا لفـظ نفسـه مـن جنـة عناقهـا الـذي رأى بـه لينًـا وحنـوًا وشـعورًا أخـر أرعبـه، هـو في أمـس الحاجـة لـه.. ولكـن هـذا الشـعور الغامـض مسـح الحـزن عـن قلبـه المضـروب عليـه الوجـع.. وأضـاء نـور الحجـرة بالـزر الموجـود فـوق سـريره.. فأصابتـه ملامـح وجههـا الجميلـة.. وقـد بـدت عليهـا الصدمـة مـن انتفاضـه بـين ذراعيهـا كطائـر جريـح.. ثـم انسـحابه فجـأة.. وسـارع متمتمًـا بقـول معـروف :

"أسف رهف.. أسف.. حقًا أسف.. أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ....."

ودوى الصمت بينهما وهي تتأمل خجله في النور.. الذي أضائه.. وتمنت عناقه كرة أخرى.. ولكن بدا ذلك مستحيلاً.. وما كان لنفسها إلا أنها كانت شاكرة على تلك اللحظات الخالدة التي تقاسمتها معه منذ قليل.. فتلك المرة الأولى التي تحتضن فيها رجلاً غير والدها بكامل إرادتها.. وكم استمتعت واطمأنت.. نعم تلك الطمأنينة التي طالما كانت عاصية على روحها الخاطئة.. فالروح الشريرة تشاب بالغم والقلق الدائم.. فهي روح تائهة عن مصدر الأمن والأمان من الرحمن ...

وأرادت أن تبتلي ما في صدره.. فقالت له :

"قالوا أنك مريض.. وطلبوا مني عدم القدوم إلى هنا.. ولكني أردت رؤيتك.. لماذا تبكي؟ ....."!

"رهف.. فضلاً منك اذهبي لبيتك.. أنا بخير.. فقط كنت أصلي وبكيت خشوعًا.. اذهبي.. الوقت متأخر.. إننا بعد منتصف الليل ....."

فزادها كلامه فضولاً ورغبة في البقاء بجانبه.. فهمست له :

"إن كنت تريدني أن أذهب.. سأذهب.. ولكن عدني بأن تسمح لي بالعودة غدًا.. عدني».

"رهف.. هذه الأيام أريد البقاء وحدي دون عمل.. أريد الراحة.. وأنتِ مثلي في أجازة.. مدفوعة الأجر.. اذهبي إلى بيتك وذاكري دروسك جيدًا.. لن أقبل منك أقل من التفوق.. هيا.. سأوقظ حمزة ليوصلك فهو يبيت اليوم هنا.. انتظري».

وضعت أصبعها الأبيض الرشيق على شفاهه الساخنة بكاءً لتمنعه عن متابعة حديثه وقالت :

"لا تهتم لحالي.. سأعود وحدي كما جئت وحدي ....."

وطبعت قبلة على رأسه وذهبت في لحظة من حيث أتت !

حتى الصباح ظل يبتسم من جنون رهف ويستغفر ربه عن عناقه لها وسرعة استجابته لها.. ظل يستغفر عن نبضات قلبه الزائدة في حضورها.. ظل يستغفر عن استيقاظ رجولته التي ظن بها الشلل مثل يده اليسرى وقدميه.. وأخيرًا نام.. ليحلم بها!

في اليوم التالي جاءت إليه.. وتعجبت لمياء عندما لم يرفض دكتور مالك لقاء رهف.. وعندما دخلت عليه طلب منها أن تجلس

بجانبه وتحضر دفتره الذي يكتب به قصصه وطلب منها أن تكتب خلفه قصته الجديدة.. وكم كانت فرحتها وهي تسجل سرده لحكايته :

قصة: «فتاة المطر»:

بلغني أيها الملك السعيد ذو الرأي الرشيد منحك الله العمر المديد ...

أنه في الزمن الغابر كان هناك ملك حديث السن جميل الطلعة استيقظ ليلاً بعد كابوس.. رآه في المنام.. فقد رأى نارًا تشتعل في قلبه ولا تنطفئ وصار يصرخ من الألم حتى استيقظ من نومه مفزوعًا.. فخرج إلى شرفة حجرة نومه.. وتأمل ما حوله في ملل الملوك من كل شيء، فلا شيء يبهره وهو يملك كل شيء، حتى شاهد فتاة رائعة الجمال تستحم في البحيرة التي يطل عليها قصره الكبير.. ثم خرجت من البحيرة.. وتدثرت بشال أحمر حرير.. وعندما أمطرت السماء وقفت الفتاة ترقص.. بفرحة طفل صغير ...

أخذت قلبه وسكنت روحه وبات يحلم فقط.. بقربها.. فلم يكن يعرف سرها.. ناداها حتى استيقظ خادمه ولكنها لم تسمعه.. وسكت المطر واختفت من أمام عينيه.. وتألم قلبه الذي

صار أثير عشقها.. ويريد بأي طريقة خطب ودها.. محادثتها.. وسماع صوتها.. أراد بكل الطرق امتلاكها.. أرادها له وحده ليخفيها عن عيون البشر.. ويسكن معها وحدها على القمر.. وبات يبحث عنها بشغف.. ولكن بحذر...

وأخيرًا وجدها وزيره في أحد الأسواق، فقد كان لون شعرها فريدًا في القرية، حيث كل الفتيات تحمل فوق رءوسهن شعرًا أسود، وهي وحدها شقراء رغم عينيها البنية التي تميل إلى سواد ليل ساحرة نجماته، وكأنها كانت كائنًا ملائكيًا فريدًا.. همه الرقص، وحيد.. لأن ألمه شديد ...

وامتثلت لأمر الوزير.. ووقفت ذليلة مجبرة تنتظر الملك في بهو قصره.. ودخل عليها الملك وأمر كل الموجودين بالذهاب من مجلسه.. فقد ظن أنه وجد بعد طول انتظار من يؤنسه ...

بادرها الملك بألف سؤال ولم يعطها فرصة واحدة لترد :

"من أنت؟.. وكيف أنت؟.. ومن أين أتيت؟.. ولماذا ترقصين تحت المطر، ألا تخشين المرض؟! متعك الله بالعافية والسعادة.. وكيف اختفيت وأين ذهبت؟.. فقط رجاء تزوجيني.. ابقي معي.. كوني زهرتي البرية نادرة الجمال التي سأخبئها من أهل الكون في قلبي.. كوني أنا.. يا أنتِ ....."

نظرت في عينيه مليًا.. وحلمت للحظة.. ولكنها صرخت في وجهه :

"لا أقبل.. لا أستطيع .....»

وكعاصفة خرجت من قصره، كانت تركض كمن يركض من وحش أسطوري مخيف.. وليس ملكًا شابًا.. في عين الجميع رقيق.. لطيف ...

الصدمة من فعل الفتاة.. أخرسته.. وخيبة الأمل التي سيطرت على ملامح وجه الملك الشاب.. كانت قاتلة لفرحته بالعثور على الجزء المفقود من قلبه.. بالعثور عليها ...

وصلت بيتها ترتعش ذعرًا.. فهي لتوها أهانت ملك المدينة.. وحتى لو سامحها لن يتراجع عن فكرة الزواج بها.. وجلست تبكي وتحتضن أخاها الصغير الذي لولا وجوده لقتلت نفسها لترتاح من همها الذي لا ينتهي.. فكل من يراها يقع في غرامها ويطلب زواجها.. وهي ترفض دون ذكر السبب فيحولون حياتها البائسة إلى جحيم لا ينتهي.. حتى تحول جمال وجهها لكابوس لن تستطيع الاستيقاظ منه إلا بموتها.. والاختباء للأبد في قبرها.. ولكنها المسئولة الوحيدة عن أخيها ولا يمكنها التخلي عنه أبدًا بعد موت والديها.. وعليها أن تعيش وتناضل ...

كان انتقام الملك قاسيًا عندما طلب من رجاله إغراق قطعة الأرض الصغيرة التي تملكها هي وأخوها وإتلاف محصولها الذي تبيعه كل عام وتنفق على بيتها ...

واضطرت بيع حليها.. لتصلح أرضها وتعيد زرعها.. ففرض عليها الملك ضرائب كبيرة لم تستطع سدادها إلا ببيع أرضها.. لم يكن الملك يريد سوى إذلالها حتى تقبل طلبه أو تقتل حالها.. فهذا قهر الرجال.. والهروب منه محال.. وعقابها الذي لا ينتهي على ما تملك من جمال.. وقلب بريء كالأطفال...

وباعت كل شيء لديها لتسدد دينها، وتنفق على أخيها.. الصغير.. الذي تحملت من أجل عينيه البريئة الكثير.. الكثير ...

وباتت تنام في الخلاء والأماكن العامة، فلم يعد لديها أربعة جدران تأويها وتحميها من المطر.. والشمس ومطاردة الذئاب لها في ضوء القمر.. حتى مرض أخيها واحتاجت المال لعلاجه.. فعرض عليها رجل أن تكون جاريته مقابل علاج أخيها.. وقبلت.. فداء حياة أخيها بحريتها.. وبقت جارية لذلك الرجل.. الذي هو في الحقيقة.. ما هو إلا طبيب قصر الملك!.. الذي يرفض مطلبًا له.. لا محالة هلك ...

وأهداها الطبيب للملك.. بكل سعادة.. فصارت عبدة مسلوبة الإرادة.. وصار عذابها كل لحظة في زيادة.. وصارت رغم أنفها ملك يمينه.. ولم ينفع توسلها أو طول بكائها.. حتى كرهت الملك الذي أحبها.. والتي فعلت المستحيل لتظل محتفظة بصورتها الجميلة في نظره ...

وضعها الملك في حجرة واسعة جميلة.. وأرسل لها ثوبًا وعطرًا وحليًا وهدايا كثيرة.. ولكنه في المساء.. دخل عليها.. ليجدها غارقة في البكاء.. فنظر لها بانتصار وكبرياء.. وقال لها بسخرية ونظرة ازدراء :

"من أنت لترفضي.. سليل العظماء.. فأنتِ الآن في قبضتي.. ألا تفهمين أيتها البلهاء؟.. ولكني قد أسامحك.. فالعفو.. شيمة الكرماء.. ولكن أولاً.. أستغفر لذنبك رب السماء....."

ولم ترد عليه.. فماذا تقول له؟!

هل تروي له قصتها من البداية، أم تكتفي بالصمت حتى النهاية.. هل تعلن غرامها الطاهر له.. منذ رأت موكبه من بعيد.. وتعلق.. قلبها وافتتانه بشيء ليس لها.. ممنوع عنها.. هل تكشف جسدها وتصدم عينيه بالحروق التي تشوه جسدها منذ كانت طفلة في العاشرة عندما وقع عليها الماء الساخن فسلخ جسدها،

وظلت بين الحياة والموت أيامًا وأسابيع حتى عادت للحياة دميمة مشوهة الجسد، واعتادت الاختباء في ملابس ثقيلة محكمة الإغلاق.. كي لا يدري أحد بسرها.. تحديدًا مأساتها...

هل تخبره.. أنها اعتادت التسلل لبحيرة قصره والاستحمام بها.. فقط لتراه من بعيد.. فهي تعرف من كثرة مراقبتها له أنه عندما يقلق ليلاً يخرج إلى شرفة حجرة نومه ليشاهد القمر ونجوم المساء.. ولكنها هي كانت تشاهده هو.. فكان هو قمرها.. سرها الخفي وملاذها إذا ضاقت بها الدنيا.. فتحول الآن لألم لا ينتهي وكابوس تحقق...

اقترب منها.. فابتعدت ترتجف.. فاقترب منها.. فحاولت الهرب منه ودفعه برفق عنها، فجن جنونه أكثر وجذبها من ثوبها الحريري الذي أهداه لها.. فانقطع الثوب وانكشف جزء من جسدها المحروق المشوه.. فنظر لها مصدومًا.. فهو عندما شاهدها سابقًا.. لم يرَ في عتمة الليل جروحها.. ومصدر ألمها.. ثم تحولت الصدمة لنظرة اشمئزاز.. من بشاعة منظر جروحها.. فأدار لها ظهره، وقال لها بشفقة قتلتها :

"سأعيدك بيتك.. لا تقلقي.. وسأشتري لك بيتًا جديدًا.. وأرضًا جديدة.. وأنت من الآن لست جاريتي.. وأخوك من اليوم في عهدة طبيب قصري ليعلمه الطب والعلوم وسيكون تحت

رعايتي.. فقط سامحيني....."

وعادت بيتها وحيدة.. تحمل عقابها.. على عظيم حبها.. بعد أن عرف الملك بسرها.. واستباح تعذيبها ...

ومضت الأيام.. ونسيت النوم.. والكلام.. نسيت كيفية الابتسام.. واشتاقت لرؤية الملك، فنسيت النار مشتعلة على الطعام وخرجت فقط لتراه.. من بعيد.. فاشتعلت النار في بيتها حتى تفحم وظن الناس موتها.. لم يعرفوا أنها كانت تبحث باكية عن إدمانها.. ومطلب قلبها.. عن الرجل الذي يومًا أحبها ثم لكونها قبيحة من قصره وقلبه تقريبًا طردها ...

ولم تظهر للناس مرة أخرى.. ولكنها ذهبت بعيدًا بعيدًا.. حيث أناس لا تعرفها ولا تسألها.. وعرف الملك بموتها، وحزن قليلاً لأجلها.. ولكن زوجته الجميلة ابنة الوزير آنسته همه.. آنسته المسكينة التي تتلذذ لشهور بتعذيبها.. فقط لينال حبها، وعندما صارت ملكه.. تركها تذهب لكونها لا تملك حلمه المزيف بالجمال.. ما ينشده من الكمال...

واعتاد الملك ليلاً رؤية شبح عند البحيرة.. يراقبه من بعيد.. ويختفي في الصباح من جديد.. شبح.. يرقص عند هطول المطر رقصًا فريدًا.

"بشر"

"عندما أحببتني.... رأيتني قمرًا

فأحببتك.. فنزلت لمرتبة البشر

وعندما..... توقفت عن حبي رقصت لك دامعة تحت المطر"

«وعجبي»

●●●

obeikan.com

obeikan.com

٨-والكاظمين الحب!

"والكاظمين الحب والعافين عن الشوق.. وإنا إلى ربنا عاشقون"

اللّه خلق الحب.. وذكره في كتابه ستة وسبعين مرة.. ومالك يعرف ذلك ولكنه يلوم نفسه وهو الرجل المريض العاجز عن الحركة شغفه حبًا بها.. وهي في عمر أقل من نصف عمره ...

قال لها بعد انتهاء قصته :

"اذهبي رهف واشربي شيئًا واستريحي ثم عودي لي بعد نصف ساعة.. هناك قصة أخرى أريد كتابتها.. ثم ننشرها على صفحتي على الفيسبوك ."

ذهبت.. ثم بعد أقل من نصف ساعة كانت أمامه مستعدة لتلقي كلماته التي فجأة تتحول لقصة شيقة عندما تجمعها له على ورقات دفترته البيضاء.. وعندما جلست هم قائلاً :

قصة: «رسالة لرجل.. لم أقابله"

"سلبها المرض كل جمال خلقها اللّه عليه فصارت وحيدة تتألم.. تسليتها الوحيدة صفحة على الفيسبوك التي عرفتها

برجل أحلامها، والذي عندما قال لها أحبك في إحدى رسائله، ردت عليه بتلك الرسالة ثم اختفت عنه للأبد، وكأنها كانت تخاطب نفسها، لا تخاطبه هو، فهو ونفسها شيء واحد.. أو هو توأم روحها، ولكن بجسد أخر :

" أنا أحبك.. أحبك كما لم تعشق امرأة رجلاً.. أنت كياني الذي كنت أحتمي به في زمن أخر.. في خلود أخر.. نعم.. وكيف لا أحبك.. وأنت دون لمسي مسحت سيل دموعي، ورسمت آلاف ابتساماتي.. أنا أسفة أني لم أقل لك كل شيء عني، فقد خشيت أن تكرهني أو تبتعد عني أو تهجرني وتنساني، لم أخبرك أني تقريبًا أحتضر، وأنك من أعادني بحنانك إلى الحياة.. الحياة التي لفظتني منذ نزلت من بطن أمي.. فكنت أنت حنونًا كأمي.. فعندما تقسو عليّ الدنيا.. أريد أمي أو أنت، فكلاكما تعني عندي الحنان ...

من خلف شاشة جهازي الزجاجية، ودون أن أعرف ملامحك رآك قلبي، وبات أسيرًا لك.. قد يظن الناس أن حبي لك غير منطقي أو ضرب من الجنون، ولكن الجنون لا يطيل العمر، ولا يسعد القلب ولا يرسم الابتسامات ولا يأخذني نحو النور، ويضعني مجبرة حتى أفتح عيني على جمال الحياة وغرامي بك، فعل كل هذا وأكثر ...

الشيء الوحيد الذي أعرفه أنك لي.. مع أني لست أريد هذا، فأنا أريد الموت بسلام دون أن أتعلق بك أكثر.. أو تتألم أنت عندما أهجرك رغمًا عني ...

قبل أن أعرفك، رأيتك في حلمي.. سمعت اسمك، لقد نادته الملائكة، أخبروني عنك، ولم أصدق، وخفت أن أقول لأحد عما حلمت به، حتى لا يقولون أن خلايا السرطان التي تسكن جسدي حولتني لمجنونة تهذي ...

وشككت ألف مرة في نفسي وفي مدى صدق رؤيتي، وشككت بوجود إنسان في روعتك على وجه الأرض.. حتى أني الآن لازلت أسأل نفسي هل هو حقيقي؟! كل هذا الحنان والذكاء والطيبة والروعة وكل شيء جميل.. هو أنت.. هل كل هذا حقيقي؟! هل أنت مكافأة من الله على تحملي الألم والحرمان وقسوة البشرية؟! أم أني أهذي؟! ولكني أعرف الله جيدًا، أعرف مدى لطفه على عبيده فحتى لو كنت أنت غير حقيقي لخلقك الله لي من جديد.. فهذا هو ربي.. أرحم الراحمين ...

في العالم الافتراضي قابلتك.. كنت وحيدًا.. وأنا كنت شبح إنسان مفزوع من كون بارد.. كنت حزينًا كقطعة ثلج وضعوها ظلمًا تحت الشمس، وأنا كنت نغمة حزينة من آلة موسيقية

محطمة.. كل منا عانق الأخر بروحه، اهتم به كنفسه، وإن كنت أنت تصرفت أحيانًا كالأطفال، كنت تغار عليَّ وتخاصمني، وتستجوبني وتلومني، وتبتعد وتقترب، وتعاقبني، وكأنك معي، كنت تتصرف بنفس الحرية التي تتصرف بها مع أمك.. واثق أنك لو عدت بعد ألف عام ستجدني أحبك أكثر، وتحملتك، فمن منا لا يعشق براءة الأطفال وطهرهم ...

والآن تطلب رؤيتي.. ماذا أقول لك؟! أنت تطلب نهاية لحلم سماوي جميل سيحطمه الواقع بمنتهى القسوة.. فأنت لن تحتمل رؤية ما فعله المرض بي.. فيكف ستحتمل رؤية بقايا إنسان هجم عليه وحش ضارٍ.. لذلك اتركني لحالي.. أبقني في قلبك ذكرى تسعدك.. مجرد ذكرى.. وضع لوجهي الملامح التي تريدها.. نعم أنا كنت أجمل جميلة قبل مرضي، ولكن بعد تساقط شعري، ونحول جسدي وشحوب وجهي صرت امرأة يفزعني رؤيتها في المرآة ...

أنا أيضًا لا يهمني كيف أنت.. فلا يعقل أن تكون جميل الروح والوجه، حتى أني أتمنى لو كنت دميمًا أو حتى بشعًا حتى لا تتكبر عليّ.. فأنت لك روح وحدها كافية أن تسحر ألف امرأة، وستكون جريمتك كاملة إذا كنت أيضًا رائع الوجه كما أخشى ...

سـأختبئ مـن كل الدنيـا.. فقـط حتـى لا تراني عينيـك... إذا اختفيـت الآن.. قـد تظـل عينيـك مخدوعـة.. وتظـل تعتقـد أنـي جميلـة.. فعينيـك.. لعنتـي.. التـي أعشـقها.. والتـي أبحـرت بهـا دون أن أراهـا!

لـن أعـود.. لا تبحـث عنـي.. فأنـت.. حلمـي المسـتحيل.. الـذي تحقـق.. لأمـوت حسـرة.. علـى فراقـي عنـه ...

أنـا الآن في قبـري.. وأتوسـل لـك.. ابتعـد عنـي.. واتركنـي.. أحتضـر بدونـك وحـدي.. فعشـقي لـك جريمتـي.. التـي صدقًـا.. لـم أكـن أقصدهـا.. أنـت دمرتنـي.. ليتنـي لـم أعرفـك يومًـا.. ليتنـي مـت.. وكنـت نسـيًا منسـيًا...

وجـودك في حياتـي عقـاب علـى ذنـب لـم أفعلـه.. وهـو «مرضـي» الـذي سـلبني كبريائـي ومتعـة الوجـود الإنسـاني...

أحبك.. حتى الكره.. وأكرهك حتى العشق !!!

لـم تفهـم مـا قلـت.. وكيـف سـتفهم.. مـن عشـقتك.. وعشـقت عينيـك.. وعرفتـك.. وشـاركتك عظيـم ألمـك.. وهـي حتـى لـم تقابلـك أو حتـى تعـرف لـون عينيـك..

أي ذنب فعلت.. ليكون حبي لك وضرورة بعدي عنك عقابي... نعم.. ذنبي.. تلك المضغة السخيفة.. التي لا تتوقف عن النبض بين ضلوعي..

كم أتمنى لو كان الأمر بيدي.. لحطمت أضلعي.. واقتلعت تلك المضغة.. أي اقتلعت قلبي.. أي اقتلعتك...

ولكن..

باللّه عليك.. قل لي.. كيف كنت أقاومك؟! فأنت كنت أروع من حلمي بك.. ملايين المرات..

أنا.. بشر.. ووقعت في غرام قمر.. أعتذر.. فلست حجرًا.. ولا باردة.. كحبة مطر.. ولا هاربة.. كقطرة عطر.. حياتي خريف.. ورقة شجر.. منقوش عليها العبر.. بدمي.. وماء البحر.. مأمورة بالرقص.. على الجمر.. والصبر.. على القدر ...

الآن فقط.. أودع عينيك.. فكرامتي لن تحتمل.. رؤية شفقة.. في عينيك...

آن الأوان كي أودعكم.. لقد رشفت حتى الثمالة.. حتى قلبي.. لم يعد به مكان لجرح جديد.. الوداع..."

"ليس بعد الموت إلا الحياة.. إذا دخلت الجنة.. أنت مطلبي الوحيد..."

ولـم تصلـه الرسـالة.. ولـم يقرأهـا.. وظـل يلعنهـا بينـه وبـين نفسـه؛ لأنهـا حطمـت قلبـه ببـرودة أعصـاب كمـا يعتقـد...

أمـا ذكريـات حبهمـا مـع ضحكاتهـا وضحكاتـه.. فلازالـت محفوظـة في ذاكـرة صفحـة كل منهمـا علـى الفيسـبوك متاحـة لـكل النـاس إلا همـا.. فقـد حظـر كل منهمـا الأخـر! ."

عندمـا انتهـى دكتـور مالـك مـن سـرد قصتـه، وجـد في عينيهـا دمعـة وعلـى شـفتيها ابتسـامة.. فاتسـعت ضحكتـه وقـال لهـا سـاخرًا:

"لـم أتعـود منـك رقـة القلـب يـا رهـف.. أنـا لا أكاد أعرفـك منـذ أمـس.. تحولـت فجـأة ودون مقدمـات لفراشـة حانيـة!.. هـل تريديـن أن تعـرفي حكايـة الفراشـة؟!».

فهزت رأسها موافقة.. فقال لها :

"حكاية فراشة"

كنت نائمًا.. في غيبوبة ملائكية..

فوقفت على يدك فراشة من نور..

فراشة رفضت الحبس في قفص.. في أحد القصور..

وظلت حولك ترقص وتدور.. كانت تريد اللعب معك..

ولكنك خفت منها..

وكانها أحد الصقور.. وعاملتها بقسوة مؤلمة..

كأنها أحد النسور... فبكت أمامك.. فهي لتحضر لك..

عبرت آلاف البحور.. وحطمت ألف سور..

وامتنعت عن رحيق ملايين الزهور ..

وحلقت بشجاعة بجانب تنين جسور..

وجرحت قلبها أكثر.. عندما أعطيتها ظهرك.. في غرور..

فصار فؤادها مفطور.. لا تدري جريمتها.. وسبب هذا الفطور...

وابتعدت عنك الفراشة..

وهربت نحو كون مسحور..

به.. لازال الحب.. نوعًا من الشعور..

كون.. به الحنان.. للإنسانية بذور..

وللغرام مملكة من آلاف العصور.. وعادت ترقص..

تحت الشمس.. فجمعت حولها ألف ألف عصفور..

obeikan.com

فهذا قدرها..

إسعاد كل المخلوقات.. منذ الأزل مسطور..

والآن فقط.. عرفت قيمتها.. وتتوسل منها الحضور..

فعادت لك رغم ألمها العظيم منك..

فهي لا تتحمل رؤية قلبك مكسورًا..

فالعشق.. لك وحدك.. من قلبها محصور...

فأنت روحها..

ولكن في جسد أخر.. تريدك فقط مسرور..."

ثم سكت وسألها بنظرة ود :

"هل تعبت؟.. هناك قصة واحدة باقية لهذا اليوم.. إن كنت لم تتعبي ".

فقالت له تغيظه وهي سرًا تموت شوقًا لما سيحكي :

"هذا عملي الذي تدفع لي المال مقابله.. مضطرة إلى سماعك سيدي الكونت ....."

سخريتها أعلمته أنها تمازحه فقال لها :

"شخصية مثلك رهف لا يليق بها دور المجبرة على شيء.. حتى ولو كتابة حواديتي.. فأنت أيتها الصغيرة فظة.. غير لينة.. لو كنت شخصًا مملاً وقصصي مملة لكنتي ذهبت.. أنت شخصية نارية يقتلها الملل.. ولكن بقاءك معي وهذا الشغف الذي يطل من عينيك يعني أنك معي بخير ....."

فقاطعته وهي تلوي شفتيها الحريرية بنعومة :

"لست بخير فقط.. أنا حقًا مستمتعة بك.. أقصد بقصصك.. هيا احكِ.. فورًا».

فقال لها :

"اكتبي عندك ....."

قصة: «إنسان»

"نحن نختلف.. فما بيننا معجزة وليس قصة مشاعر إنسانية.. مؤخرًا طاردتها الأحلام والكوابيس المزعجة.. أحلام ترى بها شخصًا يتعذب.. شخص لم تتضح ملامح وجهه في منامها ولكنها رغم ذلك شعرت بأدق وأبسط مشاعره.. رأته يتعذب بطريقة مهينة، وتألم قلبها الرقيق كخد زهرة برية نادرة الجمال.. حاولت

بشتى الطرق الهرب من تلك الأحلام، ولكن كان ذلك المستحيل بعينه، عامان وهي تبحث صامتة عن تفسير لتلك الأحلام التي جعلت النوم بالنسبة لها شيئًا مخيفًا.. حتى عثرت عليه.. حتى عثرت على النصف الأخر من روحها.. هو...

مرضت صديقتها المقربة، فدخلت المستشفى، وقضت بها بعض الوقت، فلازمت صديقتها ورافقتها طوال الوقت ليل نهار مكتفية بالنوم على كرسي غير مريح طوال أسبوع وهناك تعرفت عليه.. لم يكن طبيبًا أو حتى أحد العاملين بالمستشفى، بل كان مريضًا بمرض خطير.. دخلت حجرته بالخطأ، وتعلق قلبها به بالخطأ.. كل شيء لم يكن مقصودًا منها أو منه.. حكت معه في كل شيء، وحكى لها أوجاعه وآلامه التي لا تنتهي، وهو الذي لازال شابًا صغيرًا في منتهى الرقة والوداعة، ودائمًا في عينيه.. هناك نظرة حنان تصافح من ينظر له بدفء.. كل شيء حول هذا الشاب كان يطمئن.. كان مثقفًا لدرجة الإبهار، لبقًا لدرجة السحر، كلماته نغم متناسق، كل شيء به يخطف الإحساس بحبه.. وأحبته.. رغم علمها بحالته الصحية، رغم معرفتها بقصر عمره.. وبعد ستة أيام من لقائها به طلبت منه الزواج.. هكذا دون تردد.. دون خجل...

قاوم.. هو.. رغبتهما في الزواج.. ولكنها ألحت، وأقنعته أن الحياة لحظات في حضرة «الحب».. أفضل ملايين المرات.. من حياة طويلة مؤلمة.. بلا حب.. بلا مشاعر.. بلا فرحة.. وأكدت له أن الأعمار بيد الله فقط.. فربما شفي وصار أفضل من أصح صحيح.. وكم من معافى.. مات دون سبب.. وكم من مريض.. نفخ الله في صورته.. وشفي.. لأبسط سبب...

تزوجها.. شهور فرحة وهناء بلا توقف.. ثم.. مات...

وماتت روحها معه.. صارت جسدًا بلا روح.. فتدريجيًا توقفت عن الحياة.. وصار وجهها الجميل المشرق كأنه وجه لشبح حزين، هي تريده.. ولا تعرف كيف تعيده.. لقد مات.. هي تريد الموت مثله.. ولكن لا يمكنها الانتحار.. ورغم كل ذلك لم تندم لحظة على قصة حبها الحزينة تلك.. فربما كان دورها في قصة حياة زوجها منحه السكينة والرحمة والمودة في أخر أيام حياته ...

جرس باب شقتها أيقظها من نوم عميق، اعتادت الاستسلام له؛ للهروب من شعور بالاشتياق لحبيبها الذي غادرها بلا أمل في العودة، فقامت من مكانها متعثرة الخطى؛ لترى من بالباب، وفوجئت بأن ترى رجلاً يشبه زوجها الراحل لدرجة غريبة، ولكن هذا الرجل كان تقريبًا في ضعف عمر زوجها.. تقريبًا رجلاً في بداية العقد السابع من عمره...

عندما أخبرها أنه عم زوجها المرحوم سمحت له بالدخول فورًا، لقد كانت هناك في عيني العم نفس نظرة الحنان التي كانت في عيني زوجها، وبدأ العم يعرفها بنفسه بأنه مهندس حاصل على درجة الدكتوراه في مجال الذكاء الصناعي وعلوم الاتصالات، وعاش أكثر من ثلاثين عامًا في اليابان.. وأخبرها أيضًا أنه لم يتزوج أو ينجب؛ لأنه وهب كل حياته للعلم، وقال لها أنه كان يعتبر زوجها المرحوم ابنه الذي لم ينجبه، وكم اعتصر قلبه عندما علم بموته ...

لاحظ العم تلك الحالة السيئة التي تحولت لها زوجة ابن أخيه، وبات ضعفها يزيد يومًا بعد يوم.. حاول بشتى الطرق الترفيه عنها ومساعدتها، ولكنه عجز وفشلت كل محاولاته، وفي أحد الأيام دخل عليها حجرتها ليجدها مغمى عليها، ففزع واستدع لها أفضل الأطباء الذى زف إليه أروع الأخبار، لقد أخبره الطبيب أنها حامل في شهرها الثالث، ولكنها تحتاج رعاية شديدة وممرضة تلازمها طوال الوقت، وطار العم فرحًا بهذا الخبر، فهذا الطفل الذي ينمو بأحشائها هو أمله الوحيد في حلم الأبوة الذي حرم منه.. هذا الطفل يجب أن يولد.. هكذا قال في نفسه.. وإلا لمن تذهب ثروته الكبيرة.. لقد قرر منح هذا الزوجة أي شيء فقط لتتمسك بالحياة ويولد هذا الطفل...

بدلاً من الممرضة أحضر لها ثلاث.. ليكن معها طوال الوقت على مدار اليوم وخاصة وأنه كان يختفي عنها لساعات طويلة في شقته المقابلة لشقتها، وكم أحبته كوالد لها وخاصة وأنها يتيمة الأب والأم حتى جاء يوم عيد ميلادها، وإذا به يفاجئها بهدية غريبة !!!

طلب منها ارتداء أفضل ثوب لديها والحضور لشقته تحديداً في الساعة الثامنة دون تأخير أو تقديم.. وعندما فتح لها باب شقته من خادمته الصينة وجدته لازال في الجزء المخصص من بيته كمعمل له ولتجاربه الغامضة، وجلست تنتظره على كرسي موضوع بجانب منضدة عليها صورة كبيرة لزوجها الراحل...

تأملت الصورة في حزن.. ودمعت عينيها.. ثم بدأت في البكاء فعلاً بصورة هستيرية دون توقف.. وفجأة وجدت من يحتضنها من الخلف بحنان، ويحاول أن يهدهدها لتهدأ روحها.. لقد كان هذا الشخص يحمل نفس عطر زوجها، نفس ملامح وجهه وصوته حتى أنها قبل أن تلتفت له، وجدت في يده نفس السوار الذي اعتاد زوجها ارتداءه.. وسألت نفسها: يا إلهي ما هذا؟!

التفتت لتجد زوجها واقفًا أمامها.. أو هكذا خيل إليها.. ووجدت عم زوجها يقول لها سريعًا لتوضيح الموقف :

"لا داعي للفزع.. فهذا توأم زوجك....."

في منتهى الدهشة.. قالت:

"ولكن زوجي لم يكن له إخوة.. وأنت يا عمي تعلم هذا جيدًا ....."

صمت العم قليلاً ثم قال :

"هذا التوأم، هديتي لك يا ابنتي لعيد ميلادك....."

قالت مندهشة :

"عمي أنا لا أفهم شيئًا.. من هذا ولماذا يشبه زوجي رحمه الله، وكيف تهديني إنسانًا كهدية، أنا لا أفهم شيئًا صدقًا ...."

قال العم:

"هو.. إنسان آلي.. يحمل كل صفات زوجك.. فأنا طالما سجلت كل اتصال بيني وبين ابن أخي صوتًا وصورة.. وأيضًا هو يتصرف مثله تمامًا، فهذا الإنسان الآلي نتيجة عملي وعزوفي عن الحياة لمدة ثلاثين عامًا، أنا اخترعته؛ لمساعدة البشر، فهو يمكنه القيام بكل الأعمال، من أعمال أفضل الحواسب، ولكني أضفت عليه أيضًا بعض الصفات الإنسانية.. كالابتسام، والعناق وغيرهما.. صدقًا.. هو سيتفاعل معك كزوجك تمامًا.. ويمكنك

أخذه معك في أي مكان ولن يلاحظ أي شخص أنه إنسان آلي.. وهو مؤهل لحمايتك من أي خطر والدفاع عنك.. اعتبريه حارسك الخاص أيضًا.. وأيضًا يمكنك الحديث معه، فهو حكيم للغاية، ولا يمل من ثرثرة النساء....."

وابتسم العم ابتسامة واسعة على جملته الأخيرة، ولكنها لم تبتسم.. وظلت تفكر: هل يمكن استبدال زوجها بإنسان آلي؟! ووجدت نفسها تبتسم ببؤس، لتلك الفكرة السخيفة...

نظرت للعم طويلاً، ثم دون كلمة تركته وذهبت لشقتها، واستغربت أن الإنسان الآلي يتبعها إلى حيث تذهب.. وعندما دخلت شقتها دخل وراءها، ثم أغلق باب الشقة بعناية.. فجلست.. فجلس أمامها...

وجدته يقول لها:

"أراك متعبة وعصبية المزاج.. هل تريدين بعض العصير؟"

ابتسمت.. وقالت له:

"حقًا.. أنت لعبة مسلية.. ولكنك لست بديلاً لزوجي.. لست بديلاً لوالد ابني.. هل تفهم يا أيها الآلي.. هل تشعر بوجعي عندما أراك في هيئة زوجي، في هيئة الرجل الوحيد الذي أغرمت

بـه.. والآن اذهـب عنـي.. أنـا آمـرك أن تدمـر نفسـك.. أو اذهـب لعمـي أو اذهـب للجحيـم ......"

فـرد عليهـا بملامـح وجـه تشـبه ملامـح وجـه البشـر عندمـا تعبـس :

"مـن فضلـك لا تبـكِ.. وعندمـا تخاطبنـي لا تعطنـي أكثـر مـن أمـر؛ لاختـار مـن بينهـا، فأنـا لسـت مثل البشـر أملك حق الاختيـار، أنـا فقـط أنفـذ بدقـة مـا يطلـب منـي، والآن حـددي لـي أمـرًا واحـدًا؛ لأفعلـه.. فأنـا مثـلاً يمكننـي الرقـص والغنـاء.. وممارسـة كافـة الألعـاب الذهنيـة والرياضيـة، ويمكننـي أن أروي لـك قصـة حتـى تنامـي.. فـكل معـدلات جسـدك الحيويـة تظهـر لـدي أنـك في غايـة الضعـف وتحتاجـين للراحـة....."

ثم ناولها منديلاً لتمسح دموعها.. وابتسم ...

مـع الوقـت اكتشـفت أن هـذا الآلـي مسـلي للغايـة، وخاصـة أنـه كان يقـوم بـدور معظـم الأجهـزة الذكيـة التـي قـد يحتاجهـا إنسـان مـن هاتـف إلـى سـاعة ومنبـه إلـى جهـاز لقيـاس الضغـط والحـرارة إلـى كمبيوتـر ناطـق إلـى آلاف الإمكانيـات التـي كل لحظـة تكتشـفها.. ولكنـه لـم يكـن أبـدًا زوجهـا...

وبمجرد أن ولد طفلها صار هذا الآلي لعبته المفضلة، وتعلق الطفل به مع مرور الوقت، ولكن بقيت دائمًا تعرف أنه إنسان آلي.. حقًا هو ساعدها على تحسن حالتها النفسية ولكن كدمية مسلية.. لا تملك حق الاختيار، كبشر... كإنسان.. كزوجها."

عندما انتهت القصة قالت له :

"لماذا معظم قصصك بها دائمًا أحد الأبطال مريض ويتعذب يا دكتور مالك؟»

فتأمل كل شيء حوله بنظرة قرف وقال لها :

"كلنا مرضى رهف.. من نجا من المرض النفسي لم يسلم من المرض الجسدي صغيرتي.. إن لم يجمع بينهما.. والآن اذهبي للنوم.. يبدو عليك الموت تعبًا».

فأشارت إلى سريره وقالت تغيظه بمكر :

"أريد النوم هنا.. لا أريد العودة لبيتي.. سريرك واسع ومريح ومغرٍ ..."

كان متأكد أنها تمزح معه ولكن وجهه احمر حبًا.. فهو أيضًا يتمنى بقاءها بجانبه هنا.. في سريره.. في أحضانه.. ولكنه صرخ بها ضاحكًا :

"أنت شقية.. اذهبي قبل أن أقتلك.. أوصلها بيتها يا حمزة.."

فقالت له :

"طوال عمري كنت أكره الشعر والأدب بصفة عامة ولكن أنت كلماتك سهلة وكأنك تخاطب طفلاً في العاشرة ....."

فرد عليها بتلك الأبيات :

"فبُعد ووجد واشتياق ورجفة

فلا أنت تُدنيني ولا أنا أقرب

كعصفورة في كف طفل يزمها

تذوق حياض الموت والطفل يلعب

فلا الطفل ذو عقل يرق لما بها

ولا الطير ذو ريش يطير فيذهب !

تلك الأبيات يارهف لـ «قيس بن الملوح».. هل سمعتي من قبل هذا القدر من الجمال في كلمات؟!"

●●●

obeikan.com

٩-عن أي شيء تتحدث؟!

ودع رهف واستقبل الليل وحيدًا في سريره.. الليالي الطويلة الباردة التي يعيشها.. ذكرته بليالٍ صيفية رائعة الجمال.. كان حاله يصل بها لدرجة الكمال من السعادة وامتلاك كل شيء.. وتذكر بعيون دامعة نفسه وهو يسير في طرقات المستشفى الكبيرة التي كان يعمل بها كرئيس لأحد أكبر الأقسام فيها.. حيث كان يتبعه العشرات من الأطباء الحديثي التخرج والممرضات.. الكل يبتسم له.. الكل يتمنى فقط رضاءه.. الكل من تلاميذه أمنيته الأكثر إلحاحًا البقاء في حضرته أكبر وقت ممكن؛ للتعلم منه.. فقد كان التتلمذ على يد طبيب مشهور مثله شرف كبير للأطباء الصغار.. وفرصة غالية.. حاول أن يجري اتصالاً مع النوم ليستحثه على القدوم إليه وإراحته من أفكاره التي تأكله.. وكالعادة فشلت كل محاولاته المستميتة.. تمنى أن يفقد الوعي للأبد.. وعندما لم يحدث بقي هو ومرضه وألمه والصمت! وطافت تلك الكلمات القاتلة في خاطره يخاطب بها نفسه في الظلام الذي غرقت به غرفته :

"وتعثرت الكلمات على شفتي.. لا أريد البوح بها ويؤلمني حد الموت احتباسها بداخلي.. من أنا وماذا أريد وماذا يريدون هم

منـي؟ وهـل مثلـت دوري الحزيـن علـى مسـرح الحيـاة كمـا ينبغـي أم كنـت ممثـلاً فاشـلاً ونسـيت كلمـات حـواري مـع باقـي الأبطـال.. أيهـا الصمـت.. لمـاذا لا تتكلـم؟ قـل أي شـيء؟ هـل تلـك لعبـة نفسـية تلعبهـا معـي؟ أتريـد أن تقودنـي للجنـون؟ يـا اللّه.. رحمتـك.. أتوسـلها.. يـا اللّه.. عفـوك.. أرجـوه ...“

صرخـة مكتومـة خرجـت منـه وهـو ممـد غـارق في سـريره يصـارع همومـه بـلا حـول ولا حبيـب بجـواره يمسـح دمعـه.. واحتضاراتـه.. ولـم يملـك النـوم حتـى قـرب الفجـر.. حتـى سـمع صـوت حفيـف حركة شـبح قـادم مـن جهـة حديقـة فيلتـه الصغيـرة.. ثـم عنـوة فتـح شـباك حجرتـه.. وفي الظـلام التحـم بـه جسـم غريـب.. ناعـم التفاصيـل.. يحمـل رائحـة مـن الجنـة.. ملمسـه الراحـة.. واحتـواه ذلـك الجسـم في عنـاق قـاسٍ! حطـم ضلوعـه.. ثـم جمعهـا مـرة أخـرى بمنتهـى الرفـق.. وكأنـه عـاد للحيـاة في خلـق جديـد، ونامـت رأسـه المحمومـة فـوق كتفهـا الأبيـض البـض.. فلقـد تعـرف عليهـا قلبـه الملهـوف عليهـا فـورًا.. إنهـا مجنونتـه التـي تحميـه مـن أحزانـه ووجعـه ...

جمـع نفسـه المبعثـرة بـين ذراعيهـا.. ومـرت دقائـق.. ثـم دفعهـا عنـه وأشـعل نـور حجرتـه.. لينهـي لحظـات الراحـة التـي احتوتـه في عناقهـا.. وهمـس لهـا :

"أيتها المجنونة!"

قالت دون مقدمات.. كمعظم هجماتها عليه وتصرفاتها معه :

"رأيتك في أحلامي تبكي.. رأيت دموعك.. ولم أملك سوى المجيء لمسح تلك الدموع ....."

"أي دموع تلك يا رهف التي تتحدثين عنها.. أنا بخير تمامًا.. وأنا لا أدري ماذا تفعلين هنا ولماذا دخلت عليَّ بتلك الطريقة الغريبة؟ أنت مجنونة كليًا.. أنت كارثة حقيقية! "

"عن أي شيء تتحدث.. لست طفلة غبية حتى لا أراك.. أنا أراك من الداخل أفضل مما أرى نفسي.. أرى قلبك وأجول به وأعرف عنك ما لا تعرفه عن روحك.. أنت وجع يسير على الأرض.. أريد أن أعرف من فعل بك هذا؟ هي.. هي من حطمت قلبك الطيب؟؟؟"

العشق يمدك بقوة من حيث لا تحتسب.. إنه نور القلب وفرحته.. المجد لمن ذاقه.. والحنان لمن منحه !

غلف رده عليها بابتسامة حانية وهو يهمس حتى لا يسمعهما أهل البيت من أخته وخدمه وخالته التي جاءت أمس لزيارته وباتت ليلتها في بيته :

"رهف.. أنا بخير فعلاً.. ولكن تصرفاتك غريبة ومجنونة ولو استمررت بالتصرف بتلك الطريقة المتهورة سوف أضطر لعرضك على طبيب نفسي من أصدقائي».

قاطعته ضحكتها الرنانة.. فمد يده الوحيدة القادرة على الحركة وكتم أنفاسها حتى لا يسمعها أحد وتثير فضيحة له في بيته في الرابعة صباحًا حيث كل الناس نيام ...

أفضل طريقة كما ترى رهف لإيصال رأيك لشخص يرفض أن يسمعك.. عناقه.. لذلك عادت رهف وقذفت رأس دكتور مالك مرة أخرى على صدرها الذي في أوله طراوة.. وفي البقاء عليه حلاوة.. وقالت له :

"احكِ لي وجعك.. احكِ لي عنها.. احكِ لي، أرحم من أن تجن ....."

بجهد جهيد خلص مالك نفسه منها.. فقد كان يقاوم المكوث في الجنة.. المكوث داخل حنانها.. الجانب الأخر منها الذي ظهر منها فقط له دون خلق الله.. وهي القاتلة.. التي تنتشي برؤية دماء ضحاياها.. ولكنها معه تصبح شيئًا أخر نظيفًا.. وكأن لها شخصيتين.. كل شخصية تسكن كونًا بعيدًا عن الكون الأخر.. فهي معه لا تعرف نفسها.. ولكن تعرفه فقط !

أسند رأسه على وسادته.. بعد أن أزاح نفسه عنها قدر الإمكان وقال :

"كانت لا شيء.. وصنعت منها شيئًا.. فأخذت مني كل شيء!

وابتسم بوهن وانكسار وقال لرهف :

"هل فهمتي شيئًا؟ وكيف تفهمين وأنا نفسي لازالت لا أفهم ما حدث.. فهل الحب جريمتي؟ هل وثقت بامرأة صنعت من خيانة؟ الكلام يؤلمني رهف.. هيا اذهبي».

فصرخت به: «احكِ ....."

فاصفر وجهه ولمحت قطرة عرق تضيء جبينه رغم برودة الجو.. وتنفس كتنين صغير غاضب مطلقًا نفخة من الجحيم الذي يحترق به ليل نهار، وهو لازال على قيد الحياة :

"هي أخذت مني كل شيء.. مالي وشرفي وكرامتي وصحتي و....."

وسكت وغطى عينيه بيده وهو يتذكر مشهد خيانة زوجته «منار» مع صديق عمره «فتحي».. في بيته على سريره في شقته القديمة التي تزوجها بها، وصرخ في رهف :

"أتوسل إليك يا رهف عودي بيتك.. سأموت لو قلت أكثر.. اذهبي حالاً".

وذهبت كما جاءت في لحظة دون كلمة.. فقد خافت عليه وهي التي لم تتعود أن تخاف على أحد من قبل.. فالغضب يصنع بنا أسوأ مما يصنع بنا عدونا.. فهو إما يجعلنا نرتكب الحماقات طواعية أو نقتل أنفسنا حزنًا ومرضًا! وهو غاضب حتى السماء.. وغضبه مشلول.. عاجز عن الركض بعيدًا عنه وعن جروحه ...

وقررت رهف قتلها.. كتحية منها لرجل بدأت تتعلق به!

في اليوم الثاني كانت بين يديه تكتب قصصه وأشعاره.. التي يتسلى بكتابتها ونشرها على صفحته على الفيسبوك.. وكأن شيئًا لم يكن :

"قصة: بائعة الياسمين"

اختلطت رائحة قطرات المطر برائحة الورود التي تحملها حيث كانت تلك المرأة الشابة تحتضن مجموعة ورود تكاد تحتضر من قوة هطول المطر عليها.. كم هي جائعة! وبرودة الجو تصل بقسوة لكل أوصالها.. فملابسها، رثة وقديمة، لا تشعرها بالدفء.. ولا بآدميتها.. واستسلمت للبرد والجوع والألم ونظرات الازدراء من المارة.. وابتسمت بشجاعة لطفلتها الوحيدة ذات الخمسة أعوام، تلك الطفلة التي لا تعرف لها أبًا...

فقد اغتصبها عدة شباب شوارع منذ فترة، وانتهى بها الأمر حاملاً في طفلتها.. تلك المسكينة.. التي تحمل جمالاً نادرًا كملاك صغير.. لم تعرف لنفسها يومًا بيتًا ولا مأوى.. فهي نتاج مجتمع تحمل القهر والفقر ثلاثون عامًا على يد طاغية محنك.. قتل فطرتهم السليمة التي تسعى دائمًا للحرية والعدل والخير.. فصارت مخلوقة تسعى في الشارع ليل نهار.. فقط من أجل أن تحظى بفتات الطعام وما يستر الجسد على استحياء من ملابس رثة...

نظرت لابنتها فوجدتها مثلها ترتعش بردًا وجوعًا.. فقررت احتضانها والنوم قليلاً حتى يهدأ المطر؛ لتعود وتبحث عن رزقها ورزق الطفلة كباقي سواعي الليل.. وفي مكانها المعتاد تحت الكوبري الحديدي الأثري نامت محتضنة الطفلة.. لتحميها بجسدها من قطرات المطر التي لا ترحم وصفعات البرد الضارية ...

نامت الطفلة فورًا.. بمجرد أن احتضنتها ودب الدفء بجسدها الصغير النحيل.. أما هي فقد غرقت في أحلام اليقظة كعادتها...

حلمت بدنيا.. هي فيها تعامل كبشر.. وليست كالحيوانات تسعى تحت الشمس والمطر.. حلمت بالطعام الذي تتضوع جوعًا له.. حلمت برداء يستر جسدها الجميل.. حلمت أن تدخل ابنتها مدرسة لتتعلم، ولا تتحول لنموذج أكثر تشوهًا منها.. حلمت

وحلمت وحلمت واستيقظت على صوت عالٍ لمشاجرة بين عدة رجال.. حيث كان هناك أربعة رجال يشكلون دائرة حول رجل واحد...

وقفت تراقب عن بعد ما يحدث، فقد كان هؤلاء الأربعة رجال يحاولون الاستيلاء على كل ما يمتلك هذا الرجل.. وضربه بقوة أيضًا...

وظلت تراقب من بعيد...

في البداية قاوم الرجل ودافع عن نفسه بشراسة.. ولكن هم أربعة رجال ذوو عضلات.. تحمل عقول مخدرة، لا تشعر بأي ألم من أية ضربة يوجهها لهم، وهو وحده يصارع طواحين الهواء من أجل البقاء...

عندما وجدت كفته في معركته مع البلطجية تتجه للهزيمة قررت مساعدته بطريقتها.. فهي تعلم جيدًا أن الصراع الجسدي مع هؤلاء خاسر لا محالة؛ لذلك عليها استعمال المكر.. الذي لا تملك سلاح غيره ..

من بعيد بدأت تصيح :

"بوليس.. بوليس.. بوليس....."

وفي الظلام اتجهت نحوهم قائلة :

"اهربوا.. ده.. ضابط وزميله كانوا ماشيين وراه.. وجايين دلوقتي.. اهربوا بسرعة.. يالا مفيش وقت.. أنا زيكم بنت شارع وخايفة عليكم.. وربنا يعوض عليكم في عملية تانية.. يا رجالة....."

دون تفكير كبير يهرب البلطجية.. ويتركون الرجل وحده ملقى على الأرض ...

تتخذ نحوه خطوات بطيئة؛ لترى حجم الضرر الذي وقع عليه، تمسح جسده بعينيها البنية الواسعة، وتزم شفاتيها الكرزية عندما تكتشف أن ملامح وجهه غارقة في الدماء.. وكقطة برية تخاف الاقتراب كثيرًا من البشر، تحاول في حذر القرب منه وتكتشف مصدومة مدى الوهن والضعف الذي يسيطر عليه.. حتى جعله غير قادر على الوقوف على قدميه.. ودون كلمة أخذت بيده وساعدته على النهوض.. أشار لها إلى سيارته التي بمجرد أن نظرت لها عرفت أنه رجل يعيش في الطبقة الاجتماعية فوق المتوسطة.. فقادته نحوها.. وبمجرد أن صعد السيارة.. تركته واختفت في الظلام...

عادت لتجد طفلتها ترتعش برداً وجوعًا.. ودموع بريئة تحكي ألمًا لا يوصف، كانت محبوسة ظلمًا في عيني الصغيرة.. وكانت الأمطار قد هدأت قليلاً ولكن لازالت الرياح تعوي كذئب؛ لالتهام رثي الثياب.. مشردي البيت ...

حملت الصغيرة ومشت بها بخطوات متعبة ثقيلة على نفسها فقد قررت أن تطلب المال من الرجل الذي أنقذته.. فقط لتطعم طفلتها الجائعة.. كانت فقط تريد منه بعض جنيهات لتحضر ما يسد رمق ابنتها الوحيدة ...

عادت إليه وهي تتضرع للسماء ألا يكون قد غادر.. وحمدت الله أنه لازال مكانه في السيارة.. عندما رآها تهللت ملامحه فقد سر فعلاً برؤية منقذته.. وخاصة وأنه غير قادر على قيادة السيارة من شدة ألمه ...

لا يدري كيف أزاحته بمنتهى الرفق عن كرسي قائد السيارة بعد أن أجلست صغيرتها في الكنبة الخلفية.. وجلست هي بدلاً منه.. تقود به السيارة وهو يجلس بجانبها في ذهول من إجادتها للقيادة.. فقد تعلمت القيادة في عربات جمع القمامة التي كان لها صديق سائق لإحداها.. وكانت تمنحه جسدها مقابل المال، وتركها تقود السيارة الضخمة لجمع القمامة قليلاً.. ثم ابتعد عنها عندما عرفت زوجته بتلك العلاقة الآثمة ...

بنفس متعبة من يوم طويل متعب الأحداث، وجهها في الطريق لمكان بيته.

دخل الثلاثة من باب الشقة.. التي يسكنها وحده.. فقد سافرت أمه لخالته منذ عدة أيام لترعاها في مرضها، أما أخته الوحيدة فقد تزوجت منذ زمن...

بذلت كل جهدها لتوصله لسريره، فقد كان يستند عليها منذ نزل من باب السيارة.. وحتى في المصعد.. كانت تقريبًا تحمله كلما وقع أرضًا بعد عجز قدميه عن حمله ...

وضعته في سريره بمنتهى الرفق.. وذهبت تبحث في شقته عن قطعة قماش أو فوطة؛ لتبللها وتمسح بها جرحه.. وفي طريقها للبحث وجدت ثلاجته المتلئة بالطعام، فأخذت القليل منها ووضعته أمام طفلتها، ثم دخلت عليه حجرة نومه مرة أخرى وجلست بجانبه، تمسح على جرحه بحنان، وهي تتأمل ملامحه.. كم هو ذكي الملامح.. وكأنه شخص عظيم له هيبة أو مكانة خاصة في طبقته، رغم كونه مازال صغير السن.. حتى عينيه بها شيء مريح.. ربما مطمئن ...

قطع صمتهما دخول طفلتها عليهما.. فابتسم للطفلة بوهن.. وقال لأمها:

"أشكرك على إنقاذي وعلى توصيلي.. لولاك.. كنت مت على يد البلطجية.. ابقِ هنا للصباح.. وكلي ما يعجبك من طعام ثلاجة المطبخ....."

لم تستطع أن ترفض عرضه.. فبعد أن نزعت حذائه، وجاكته، غطته بشيء ثقيل يدفئه وخرجت من الحجرة تتلمس خطواتها على أطراف أصابعها نحو صالة البيت.. نامت ابنتها على أريكة بجانبها وهي سمحت لنفسها بالاستحمام سريعًا في ذلك الحمام الرائع والواسع الذي من الواضح أنه لا يستخدم كثيرًا لأنه يخص الضيوف.. وعندما نظرت لنفسها في المرآة وجدت امرأة نظيفة وجميلة، رائحتها عطرة كفاكهة طازجة لم يتذوق جمال طعمها أهل الأرض.. ثم جلست مستمتعة بالدفء والطعام في استرخاء لم تعرفه من قبل في حياتها أمام التلفاز.. تشاهد فيلمًا رومانسيًا حالمًا أبيض وأسود.. وتمنت أن تستمر تلك اللحظة إلى الأبد.. فهي لا تطمع في أكثر من بيت.. تشعر فيه بالدفء والأمان...

نامت.. واستيقظت على يد تداعب خدها برقة.. ففتحت عينيها لتجد صاحب البيت يطالبها بثمن الطعام والدفء ولكن بطريقته ...

وقفت لتواجهه فضمها عنوة إلى صدره.. حاولت الهرب منه.. ولكن إلى أين؟ نظرت لابنتها فوجدتها نائمة كملاك بريء.. توسلت له بعينيها ليتركها، فجذبها إليه أكثر...

في حجرة نومه.. توقف الزمن وهو يأخذ منها شيئًا غاليًا اعتادت أن تفرط فيه لتبقى على قيد الحياة.. لقد علمها مجتمعها أن تستسلم دائمًا.. أن تتنازل عن كرامتها لتحصل على الفتات...

في الصباح وضع في يدها مائة جنيه وطلب منها أن تذهب.. وذهبت.. دون كلمة.. دون دمعة.. دون سؤال.. دون كلمة وداع.. اختفت من أمام عينيه التي أحبتها بعد ليلة حب واحدة أجبرت عليها.. أما هو فلم يشعر بها.. فربما هي نغمة هادئة لدرجة أنه لم يسمعها أو يشعر بها من قبل ...

ويمضي الزمن بعد ليلة الحب تلك وطرده لها من بيته بتلك الطريقة الباردة.. ليقابلها مرة أخرى في إشارة مرور في ليلة صيفية فيها القمر يتوسط السماء.. وقد اكتمل جمال وجهه.. حتى طغى على جمال النجمات المتنافسات في التجمع حوله في رقة ودلال...

وإذا به يراها.. ويعرفها بعد لحظات قصيرة من التدقيق بها، وكأنها مجرد جماد لا روح به موجود بالشارع الواسع المزدحم بالمارة والسيارات.. ليتفأجأ بها تحمل طفلاً صغيرًا في الثالثة من

عمره، كل ملامحه تشبهه تمامًا وكأنه رأى نفسه في مرآة الزمن.. ويرتطم قلبه بضلوعه.. فالطفل كأنه ابنه.. وعمره مناسب تمامًا ليكون ابنه.. ويقرر أن ينزل من السيارة ليتحدث معها ويعرف الحقيقة ولكن يوقفه خوفه من زوجته التي تجلس بجانبه في السيارة.. ويوقفه للأبد هذا الخوف.. ويسجنه مكانه ويعذبه الصراع...

ويحسم الصراع اختفاء بائعة الورود فجأة من أمام عينيه ومعها ابنه الذي سيكون يومًا.. طفل شارع ثم مراهق شارع ثم رجل شارع.. ثم سيصبح يومًا بلطجيًا تمامًا كالبطجية التي حاولت سرقته يومًا.. وكل هذا فقط مقابل ليلة حب مع امرأة لاحول لها ولا قوة أكرهها عليها...

"رأيت "

كل الحياة في عينيك..

فكيف في الزحام أفلتتني يديك..

وعدت وحيدة..

كقطرة ندى نزلت أرضًا تعاني الجفاء.. وحدها...

كحسنة وسط ألف سيئة.. تستغفر ربها...

كطفلة.. محرومة الحنان.. تنتظر من يضمها...

قد تعود.. وقد تبقى بعيداً..

ولكن يكفي أني..

عرفت مشاعر.. لن يأخذ أحد مني.. جمالها..."

عندما انتهت القصة سألها كالمعتاد :

"هل تحبين أن تذهبي للراحة قليلاً أم نكمل؟»

فأجابته وهي مشغولة نفسيًا بالتحضير لقتل زوجته قائلة :

"نكمل ....."

ففسر هو عبوسها في وجهه على أنه ندم منها على ما حدث بينهما أمس.. لم يفهم أنها مشغولة بشيء أخر وتخطط لتصرف دموعه.. فتابع يروي لها وهي تكتب :

"قطي العزيز"

الآن.. لا يجوز..

أن تبكي اللبن المسكوب...

وتري كل ..

الصور.. غير حقيقية.. بالمقلوب...

تتصور نفسك ملاكًا.. وأنا وحدي..

البشرية.. التي تحمل كل العيوب...

والنار في عينيك..

عن قسوتك المعهودة.. مندوب...

واتهامي.. بالبعد.. ووجع القلوب...

ألم تكن مغادرتي..

دون كلمة.. هي.. مني المطلوب...

بعد أن صار قلبي..

الذي صدقًا أحبك.. عليه.. المغضوب...

أتعجب حالك!!

تفتقد حنان يدي على جرحك.. وتذوب...

تنزوي بعيدًا عن الناس.. وتعاني المكتوب...

عطرك فضحك.. فأنا ..

أعرف كونك.. تتلمس عطري..

obeikan.com

وتتتبع ظلي في كل الدروب...

غلطتي معك..

أني عاملتك.. كحمامة وديعة..

وبدل اللحم.. قدمت لك الحبوب...

فغضبت.. وجرحت يدي..

وتركت في روحي منك.. آلاف الندوب...

وسامحتك!!

أليس هذا في قصتي معك محسوب؟؟؟

ونزف قلبي أمامك..

بدلاً عن يدي.. حتى تم تكفير كل الذنوب...

والآن.. يهمك فقط..

عودتي لقلبك.. ومناداتك قطي المحبوب؟؟؟

حتى عظيم عشقي لك.. لا..

يجعل قلبي المجروح منك.. على هذا مغصوب..."

وهنا دخلت لمياء تحمل لهما طبقًا من الفاكهة الشهية.. التي

obeikan.com

أخذت منه رهف تفاحة حمراء وقضمتها بشغف وهي تحدق إلى شيء ليس له وجود وتتخيل زوجة دكتور مالك «منار»، تلك السمراء ذات الخصر النحيل والأسنان شديدة البياض التي يبدو أنها أنفقت عليها ثروة، قتيلة عند قدميها عاجزة عن الحركة.. وابتسمت.

●●●

obeikan.com

١٠-وصالك هنا

بمجرد بدء شهر مايو.. ارتفعت درجات الحرارة في القاهرة أكثر من معدلاتها الطبيعية في مثل هذا الوقت من العام.. لذا نصح الطبيب دكتور مالك بالسفر عدة أيام إلى الشاليه الخاص به في قرية «مارينا» السياحية.. في الساحل الشمالي.. ولكن رهف مازالت مرتبطة بامتحانات سنتها الثالثة في الجامعة.. لذلك سافر الدكتور مالك مع حمزة وأخته لمياء على مضض وتركها مع أختيها في القاهرة.. بعد أن وضع في يدها الكثير من المال كمكافأة لها عن تعبها مؤخرًا في العمل معه.. ولكنها فهمت أنه فقط يريد إعطائها المال لتنفق على دراستها والكتب والمراجع دون أن يجرح مشاعرها ويشعرها أنه يتصدق عليها ...

خرجت رهف من امتحان مادة «الفيزياء».. راضية تمامًا عما فعلت وكتبت، رغم صعوبة الأسئلة التي جاءت بالامتحان.. وإذا بهاتفها المحمول يرن في إلحاح.. وسمعت صوته الذي اشتاقت له كثيرًا حد الوجع.. حد البكاء.. وتفاجأت من نفسها كيف أصبحت تعتبره كل أسرتها.. وكأنه أمها وأبوها في شخص واحد.. وكأنه مصدر الأمان الوحيد على الأرض.. وأجابته في خشوع وهي في محراب غرامها :

"نعم.. دكتور مالك.. كم اشتقت لك.. أنا بخير وقد جاوبت أكثر من رائع في الامتحان.. أرجوك توقف عن القلق.. وتأكد أني أنفذ كل تعليماتك.. وأهتم بنفسي ....."

قاطعها دكتور مالك في الهاتف :

"متى سأراك يا رهف.. بمجرد انتهائك من امتحاناتك عليك القدوم إلى هنا.. حمزة سيأتي إلى القاهرة مخصوصًا لإحضارك أنتِ وهدى وملك.. بلغي لهما سلامي.. ومني قبلة كبيرة على رأس ملك ....."

همست إليه في الهاتف ضاحكة :

"القبلة فقط لـ «ملك»؟! وأنا.. أتدري أنا لا أريدك أن تقبلني.. أنا أريدك أن تعانقني.. فيحكى أن العناق في الحب.. حياة ...."

قاطعها :

"لقد جننتي تمامًا يا رهف.. كيف تتحدثين هكذا معي؟! أنتِ لن يؤدبك إلا الضرب على مؤخرتك.. وأعدك أني سأفعل بمجرد رؤيتك أمامي».

كاد هاتفها أن يقع من يدها من كثرة الضحك.. وخيل إليها أن مالك هو الأخر يشاركها الفرحة والضحك !

في الأيام التالية بدأت رهف تجمع معلومات شديدة الدقة عن منار.. زوجة دكتور مالك.. وتعجبت أنها مازالت زوجته ولم يطلقها خاصة بعد خيانتها له.. منذ عامين كاملين! عرفت عنها الكثير من خادمتها التي قابلتها في السوق وعقدت معها صداقة مزيفة وادعت أمامها أنها فتاة فقيرة تبحث عن بيت تعمل به خادمة أو مربية.. وعرفت من الخادمة معظم تحركات سيدتها.. ومتى تذهب لشركتها.. التي هي من مال دكتور مالك ورفضت ردها له.. ولذلك رفض تطليقها.. لأن تلك الشركة وضع بها معظم مدخراته من ممارسة العمل في الطب داخل وخارج مصر ...

عرفت وعرفت.. ورسمت ألف خطة لقتلها بأبشع الطرق.. ولكنها لا تريدها وحدها.. بل تريد الانتقام منها هي وفتحي الذي صار صاحبًا لها أمام جميع الناس دون مراعاة لكونها لازالت زوجة لرجل أخر! كان يومًا صديقه !

واكتشفت أن السيارة تجمع منار وفتحي كل ليلة.. ليلاً في طريق عودتهما للبيت.. تحديدًا سيارة منار التي خدمت رهف الظروف في خطتها.. عندما اكتشفت أن هذا النوع من السيارات خفيف الوزن.. وتكثر الحوادث بهذا النوع إذا كانت السرعة زائدة.. ولتزيد نسبة الاصطدام تسللت لجراش سيارات الشركة.. ووصلت لسيارة منار في حرص تام حتى لا يراها أحد من الحراس أو

العمال.. ونامت تحت السيارة.. كانت تعرف ما تفعل وتثق بنفسها إلى أبعد حدود وفي دقائق قليلة، كانت قد جعلت السيارة بلا أي فرامل أو شيء يكبحها عند الضرورة! فكرت أن تضع لها بعض «السكر».. في خزان وقود السيارة ولكنها تراجعت عن محاولة تفجير السيارة بها.. فهي تريد حادثًا يبدو أقرب للطبيعي.. وتريد أيضًا أن ترى الخوف في عيني منار وفتحي عشيقها قبل موتهما! عندما يعلمان أن السيارة التي يستقلاها.. بلا فرامل !

ووقفت تنتظر نزولهما من الشركة في العاشرة مساءً في سيارة سرقتها.. كبيرة الحجم سوداء اللون.. وكانت متكرة.. بشعر مستعار أحمر قصير وعدسات لاصقة لعينيها زرقاء اللون وارتدت أيضًا نظارة طبية.. وفستان بني طويل بلا أكمام جعلها تبدو أكبر من سنها ...

طريق المقطم طريق مثالي لتلك الحوادث.. فالشركة في حي المقطم وبيت منار في حي المهندسين !

جلست منار في زهو بنفسها خلف مقود سيارتها وبجانبها فتحي في الكرسي المجاور لكرسي السائق.. الذي مال عليها بكسل وهمس لها بشيء خبيث في أذنها الناعمة كجلد الأفعى.. فأطلقت ضحكة رنانة وسط صمت الليل وخلو الطريق من الناس.. فالكل

أسرع لتجنب قطاع الطرق والسرقة.. فالأمن عاد للعمل بعد الثورة.. ولكن ليس بكل قوته السابقة كما كان في عهد مبارك! ولازالت وزارة الداخلية تتعافى وتجمع شتاتها بعد دخول وزيرها السجن ومحاكمته !

ولازالت العلاقة حرجة بين أفراد الشرطة والشعب.. فالشعب لم ينسَ ما فعلته الشرطة والشرطة لم تنسَ كيف ينظر لها الشعب !

في دقائق انطلقت منار بسيارتها ورهف تتبعهما في صمت القبور وحكمة الحية ووداعة الحمام.. إلى أن جاءت اللحظة التي بدأت فيها السيارة تترنح وسط الطريق.. من طريق المقطم.. وعندما سمعت رهف صرخات منار من خلف مقود سيارتها.. وبجانبها «فتحي» الذي ظهر مدى جبنه عندما تخشب مكانه من الصدمة بلا حركة وهو ينتظر «منار» أن تنقذه كالمعتاد.. وتتصرف!

ولم يكن من رهف لتساعدهما حتى يصل إلى قبرهما بلا تأخر.. سوى دفعهما عدة مرات بالسيارة الكبيرة الثقيلة التي تقودها عدة مرات قليلة.. وتنصت في تلذذ إلى صراخهما وسط عتمة الليل ونسمات الهواء الباردة المنعشة.. كانت رهف تضحك بعيون مجنونة وهما يتوسلان للسماء أن ترحمهما!

ولكن الدفعة الأخيرة من سيارة رهف لسيارتهما غالية الثمن.. التي ستظل قبرهما للأبد.. كانت القاضية.. وانقلبت بهما السيارة بسهولة ويسر من فوق هضبة المقطم الشامخة.. وكانت تلك أسهل مرة قتلت فيها رهف.. وأحبها لقلبها.. الذي يبتهج كثيرًا برؤية الدماء! خاصة عندما يكون ضحيتها.. قد أذى شخصًا يهمها أمره كأمها أو مالك.. الذي ترتاح في وجوده وتشعر بالأمان كثيرًا معه.. رغم مرضه وعجزه !

وفي أقرب شارع هادئ ركنت السيارة التي سرقتها وارتكبت بها جريمتها.. وعادت بيتها بتاكسي.. وفي الصباح ذهبت مبتسمة ومشرقة الملامح إلى الجامعة لتحضر امتحانها الأخير.. وأجابت به كأنها هي من وضع أسئلة الامتحان! نعم تلك رهف تفعل كل شيء بإتقان !

عند عودتها من الجامعة في الخامسة عصرًا لبيتها، وبعد أن ودعت أصدقاءها في الجامعة واحتفلت معهم بنهاية السنة الدراسية والامتحانات.. وجدت حمزة قد وصل من الساحل الشمالي ليأخذهن جميعًا.. ويسافر بهن إلى حيث بيت دكتور مالك هناك.. وفرحت كثيرًا بذلك.. فهي تموت شوقًا لمالك.. وحكاياته وكلامه وكل شيء يخصه ...

وبمجرد وصولهم.. وبمجرد أن وقفت السيارة جرت فورًا إلى حيث المكان الذي لمحت به الكرسي المتحرك الذي يجلس عليه مالك.. جرت عليه ووقفت بين يديه تنظر له بمشاعر لم تفهمها.. لقد تمنت أن تحتويه.. أن تبتلعه.. حتى يصبح جزءًا منها.. سلمت عليه.. ثم في حذر اقتربت منه وقبلت برقة رأسه.. فنظر لها وكأنه يطالبها أن تتعقل في حضور الأخرين وتحسن التصرف وإخفاء ما بينهما ...

ليلاً.. وكما تعودت اقتحمت غرفته.. ولكن هذه المرة دخلت من باب الحجرة وليس من الشرفة كما كانت تفعل في بيته في القاهرة.. وخاصة أن حجرتها التي كانت تنام بها مع أختيها كانت قريبة جدًا من حجرته.. ثم بهدوء وحظر اقتربت من سريره.. وجلست بجانبه على الأرض.. ثم أسندت رأسها المتعب القوي بجانب كف يده اليمنى.. ومرت لحظات دون أن يشعر بوجودها.. ثم تنسم رائحة جسدها فهمس لها في الظلام :

"رهف.. اذهبي لسريرك.. غدًا نتحدث.. أنتِ مجهدة من السفر يا طفلتي الفظة! اذهبي حتى أحبك ....."

"أصابني شلل أثناء نومي ....."

قالت له.. وهي تتداعب كف يده بقبلة حانية ...

فسحب يده بعيدًا عنها.. وقال لها :

"أضيئي ضوء الغرفة وأغلقي باب الحجرة واقتربي مني».

وعندما وجد ابتسامتها تتسع، تابع بنظرة جادة :

" اقتربي مني.. ولكن ليس للأفكار السوداء التي أراها تلمع في عينيك الخضراء الناعسة.. فأنا أريد فقط أن أعرف عن هذا الشلل الذي يصيبك أثناء نومك.. احكي لي كل شيء.. منذ متى يحدث هذا.. وبماذا تشعرين وكيف تتصرفين عندما يحدث؟ "

تنهدت وابتسمت وقالت له :

"يصيبني عندما أكون مرهقة جسديًا.. حيث أشعر بعجز كلي عن الحركة أو تحريك أي عضو من أعضاء جسمي كيدي أو قدمي أو غيرهما.. رغم استيقاظي نسبيًا من النوم.. ويصيبني الهلع والخوف وشعور بموت جسدي.. حتى أحاول أن أفتح عيني فيذهب الشلل في ثانية.. ويعود لي في الليلة أكثر من مرة عندما أعود للنوم مرة أخرى ....."

فرد عليها وكأنه فجأة عاد دكتور مالك.. الطبيب الأكثر شعبية بين تلاميذه في إحدى محاضراته :

"لا داعي بالمرة للقلق.. يحدث شلل النوم عندما يستيقظ المخ من نوم الـ REM، ولكن الشلل الجسدي لا يزال قائمًا، وهذا يجعل الشخص واعيًا تمامًا، لكنه لا يتمكن من الحركة، وإضافة إلى ذلك، يمكن أن تكون هذه الحالة مصحوبة بالهلوسة غالبًا، يعتقد الشخص الذي يصاب بشلل النوم بأنه يحلم؛ لأن الشعور مشابه لشعور الشخص الذي يحلم لأنه لا يقدر على الحركة ومتجمد في مكانه، ويزيد من ذلك الشعور عنصر الهلوسة (Hallucinatory) حيث يرى الشخص عناصر خيالية في الغرفة التي تكون شبيهة بالأحلام....."

ثم تابع بتلك النبرة الجادة التي تغلف صوته أحيانًا وتأخذ قلبها لدنيا واسعة ليس بها سواه وهي! وهي لازالت تجلس على الأرض وهو يجلس نصف جلسة وتنظر له بتضرع وانبهار من علمه :

" ومن الناحية الفسيولوجية، فإن شلل النوم هو اضطراب وثيق الصلة بالشلل الذي يحدث كجزء طبيعي من وضعية النوم (REM) حركة العين السريعة، والذي يعرف باسم (REM atonia) ومن المفترض بك أولاً أن تكون نائمة لفترة ٧٠-١٢٠ دقيقة على الأقل لكي تدخلي في مرحلة نوم حركة العين السريعة، وأي شيء يربك نمط النوم يمكن أن يؤدي للإصابة بنوبة، ويشمل ذلك:

الإجهاد النفسي والقلق، وتغيير العمل، وإرهاق السفر، وبعض العلاجات، والأمراض أو حتى الإفراط في استهلاك الكافيين! "

فقاطعته بقلة صبر كعادتها :

"وهل هناك علاج أيها الطبيب العظيم؟ "

فهز رأسه علامة الموافقة وقال :

" أفضل ما يمكنك أن تفعليه خلال حدوث النوبة أن تحاولي تحريك عضلات وجهك وتحريك العينين من جهة إلى أخرى، ففعل ذلك كفيل بإسراع إنهاء هذه الأعراض وحاولي الحصول على القدر الكافي من النوم ومارسي بعض التمارين الرياضية، ولكن قبل النوم بوقت كاف.. وحافظي على جدول نوم واستيقاظ منتظم.. وتقول بعض الفرضيات إن النوم على الجانب يساعد على التخلص من هذه النوبات.. وخاصة الأيمن.. وتناول الأطعمة التي تحسن الحالة المزاجية ...."

ثم مد يده وتناول قطعة شيكولاتة من على الطاولة القريبة من سريره وأعطاها لها .

فهمست وهي تأخذها منه كقطة توميء بدلال :

"حدق في عيني.. عميقًا.. فلن ترى فيها غريقًا سواك! "

ثم خرجت من حجرته وابتلعها ظلام البيت فلم يعد يراها .

الرمال الذهبية.. منظر البحيرة الخلاب.. الشابات رائعات الجمال من حولهما.. الورود بمختلف ألوانها.. ضحكتها التي لا تغيب وهي تنظر له.. حيث كانت تجلس عند قدميه على الرمال وهو فوق كرسيه المتحرك مشغول عنها بقراءة كتاب يبدو عليه أنه قيم وقديم جدًا.. وهي تتنسم أنفاسه المختلطة برائحة البحر في صمت وخجل من أن تضايقه وتقاطع استمتاعه بالقراءة لو تكلمت معه.. وفجأة رن هاتفه المحمول.. فرد واستمع جيدًا لما قاله المتحدث إليه على الطرف الأخر من الهاتف.. ثم في لحظة وقف.. من على كرسيه المتحرك.. وهي عاجزة عن النطق من المفاجأة !

ثم وجدته يرفع يده للسماء ويقول :

"عرفتك يااااربي.. واسع المغفرة.. الرحمن الرحيم، فأبى قلبي منح الحب والعشق الطاهر سوى لك.. فأنت الوحيد الذي لم تراني يومًا رخيصًا.. رغم أنك الإله الأوحد الأعظم.. رغم أنك القادر وهم الضعفاء والمستضعفين.. كلما شكوت لك استمعت لي برحمتك المبصرة.. رغم علمك قصتي وسخيف مأساتي.. كلما ناديتك كنت بجواري.. كلما توسلتك زدتني كرامة وكبرياء.. ولك ربي وحدك الكبرياء ...

كلمـا انكشـفت أمامـك عوراتـي وحماقاتـي.. سـترتني بصبـرك وحلمـك الإلهـي علـيّ.. فكيـف لا أحبـك.. وأذوب في هـوى دربـك.. فأنـت الحنـانّ المنـان.. مالـك الملك، ذو العـرش الكـريم.. اللهـم خذنـي إليـك منـي.. فالقـرب مـن رحمتـك منيـة المتمنـي ...

فمجـرد نظرتـك لقلبـي تطهرنـي.. وتظهـر براءتـي.. فأنـت السـميع العليـم ..."

●●●

obeikan.com

١١-ليلة حب.. أخيرة!

دكتور مالك وقف على قدميه.. هل هذا حقيقي؟! لقد تحققت أمنيتها الوحيدة.. أن تراه سليمًا معافًا.. يدوس الأرض بقدميه.. أنه مصدر الأمان الوحيد في نظرها في هذا الكون البارد.. أنه غالٍ كطفلها.. وستقتل منتشية كل من ينظر له بطريقة لا تعجبه.. إن فرح دكتور مالك وسعادته هي باختصار سعادتها.. وتحسن حالته النفسية يعني ثباتها العاطفي.. إنها تدريجيًا تتوحد معه.. أو أصبحت هو.. أو هو أصبح نفسها.. التي بحثت عنها طويلاً.. طويلاً جدًا!

"همجية في حبك"

"اكتشفت مصدومة!!

أن بيني وبينك.. ألف ألف جدار...

سأهدمهم وأهشمهم.. رغم..

رقة يدي.. وألوذ لقلبك بالفرار .....

وسأخرج بيدي من فمك..

ما زرعوه من غضب ومرار .....

obeikan.com

وسأضعك في قلبي..

متوجًا على عرشك ..

وأعلن حولك الحصار.....

وسأقتل من يقترب منك..

أو يجرؤ ويعكر صفوك ..

وأكويه منتشية بالنار .....

مالك في قلبي..

ليس حبًا ..

أعرف أنه عشق.. أنه انتحار.....

بقاؤك معي!!

لم يعد بيدك الجميلة..

فأنا همجية في حبك..

وسلبت منك حق الاختيار .....

أنت كنت بداخلي!!!

مجرد حلم مستحيل..

obeikan.com

فطبيعي عندما أجدك..

يكون احتجازك في قلبي قرار.....

لا تقل شيئًا..

أعرف تحبني..

تحتضر بدوني..

رجاء انتهى الحوار .....

ابتسم الآن..

ملء فاهك.. فما قلت..

لك سابقًا.. كان مجرد أفكار .....

وربما.. كان..

عن اختطافك.. قريبًا..

قريبًا جدًا.. مجرد إنذار ....."

أفاقت من فرحتها العارمة به عندما عاد ليجلس مرة أخرى على كرسيه المتحرك.. ثم دون مقدمات عاد للصمت.. صمت طويل.. عندما طلب من لمياء أخته أخذه بكرسيه المتحرك إلى حجرته.. إلى عزلته بعيدًا عن عيني رهف.. التي تشبه عيني

obeikan.com

نمرة برية تتفحص صغيرها المريض.. كانت تريد أن تعرف منه من الذي هاتفه وماذا قال له؟ ولكن دكتور مالك كالبحر العميق في حفظ أسراره.. يجب أن تغوص به رويًا.. رويًا.. لتستخرج منه معلومة تخصه !

واحترمت رهف انسحاب مالك لكهفه دونها.. رغم قلقها عندما عزف عن تناول غداءه معهم على البحر.. واكتفى بسندويتشات اصطحبها له حمزة.. في حجرته ...

صارعت قلقها عليه.. ولكنها لا تريد أن تفرض عليه نفسها.. ويكفي أنه وقف على قدميه.. وإن كان عاد للجلوس سريعًا كطفل خائف، لا زال يتعلم أولى خطوات المشي وحده ...

في المساء خرج الجميع للتنزه إلا هو بقي في حجرته وهي بقيت بجانبه ولكن في زواية أخرى من البيت الفسيح.. تطمئن عليه من بعيد.. وتتمنى أن يناديها.. ولكنه لم يفعل.. وهي احترمت تلك المساحة التي يريدها لنفسه ليفكر.. بعيدًا عنها وعن لمياء وعن حمزة وعن الجميع ...

رن جرس باب البيت حينما كانت رهف تحاول قتل الوقت بمشاهدة التلفاز.. ووجدت بالباب الطبيب المعالج لدكتور مالك.. دكتور «رأفت».. الذي وهبها ابتسامة واسعة جعلت نفسها تطمئن

لـه.. كان بدينًـا بعـض الشـيء.. وبشـرته ذهبيـة مـن كثـرة التعـرض للشـمس.. ولكـن ليـس بطـول دكتـور مالـك، ولكنـه لا يعـد قصيـر البنيـة أبـدًا.. وفـورًا رافقتـه لحجـرة مالـك، وقلبهـا يخبرهـا أن جريمـة مـا سـتقع قريبًـا.. سـيكون ضحيتهـا هـذا الطبيـب الطيـب !

فـور رؤيـة مالـك لدكتـور رأفـت صـاح بـلا مقدمـات ترحيبيـة بالرجـل :

"ليس اليوم يـا رأفـت.. مـن فضلك اذهـب.. لـن آخـذ أي حقـن اليـوم."

فرد عليه دكتور رأفت يلومه بغيظ :

"أتـدري يـا مالـك باشـا أنـي لسـت «جاريـة» عنـدك لتعاملنـي هكـذا.. لـو تتذكـر أنـي ربطـت ميعـاد أجازتـي وسـفري مـن القاهـرة إلـى هنـا.. أنـا وزوجتـي وابنـي.. بميعـاد وجـودك هنـا.. فقـط لأكـون بجانبـك.. أنـا حقًـا لا أدري لمـاذا أفعـل بنفسـي ذلـك.. ولمـاذا أحبـك كل هـذا الحـب.. وأنـت تعاملنـي هكـذا؟!»

لـم يسـتطيع مالـك السـيطرة علـى ملامـح وجهـه التـي طـوال اليـوم دربهـا علـى وضـع العبـوس والصرامـة، وضحـك عندمـا تصـور دكتـور رأفـت جاريتـه وقـال وسـط ضحكـه، وتأملـه لسـاقاي رأفـت التـي تطـل بقبحهـا الذكـوري مـن تحـت سـرواله القصيـر :

"أنت جاريتي.. بتلك السيقان القبيحة.. يا إلهي.. كم أنا سيء الحظ في النساء ....."

ثم توجه دكتور مالك بالحديث لرهف قائلاً، وهو يشير لدكتور رأفت بأصبعه السبابة:

"هذا يا رهف عملي السيء عندما كنت أفرض على مرضاي ما لا تطيقه نفسهم من اهتمام."

اقترب منه دكتور رأفت.. وبخفة وسرعة نزع عنه قميصه حتى يفحصه بسماعته الطبية.. وما كان من رهف سوى أنها نظرت إلى الأرض مدعية الخجل.. ولكنها في نفسها كانت تشفق على مالك وعلى شدة نحول بنيانه.. وكأنه مريض منذ مائة عام.. وليس رجل في عز سن الرجولة فقط في الأربعين من عمره.. لقد أكله الحزن ونهشته الحسرة !

مسكت يده بكل حنان الأرض ورأفت يحقنه بشيء ما في وريده.. فنسي الآلام وتاه في عينيها!

صاحبت دكتور رأفت حتى خارج البيت ثم بدأت تحكي له عن وقوف دكتور مالك للحظات طويلة على البحر عصر اليوم.. وبدت الفرحة على وجه دكتور رأفت عندما علم بذلك وقال لها :

"سبب شلل دكتور مالك نفسي وليس عضوي.. وأنا رغم أني لست طبيبًا نفسيًا ولكني أظنه شللاً «هستيريًا».. ومن مظاهر الهستيريا حدوث شلل في بعض أعضاء الجسم يفقد به المريض القدرة على الحركة.. وقد يشل نصف الجسم، وقد يشل عضو بذاته، ولا تتضمر العضلات.. وهذا يتنافى مع أعراض الشلل الجثماني العضوي المعروف، والمتعب في هذه الأعراض أنها تشتبه كثيرًا بأعراض الأمراض العضوية الأخرى المعروفة.. فهي تجهد الطبيب المعالج في التعرف عليها."

ظهر الذهول على وجه رهف مما سمعت.. ثم همست له حتى لا يسمعها دكتور مالك :

"وما هو هذا السبب النفسي اللعين الذي فعل به ذلك.. وكيف نعالجه؟ "

فعاد دكتور رأفت يشرح لها :

"أكيد السبب صدمة نفسية شديدة لم يتحملها.. والمريض النفسي دائمًا يحتاج إلى علاج ورعاية نفسية واجتماعية، وحالات الشلل النفسي تحتاج إلى المزيد من الدعم والرعاية النفسية والاجتماعية من قبل الأسرة بشكل خاص، إذ يحتاج المريض إلى من يتفهمه ويعيد له الاعتبار ويرفع بشكل دائم من معنوياته....."

ثم نظر لساعته وقال لها :

"سأذهب.. زوجتي في السنيما.. تنتظرني.. أرجوك احرصي على أن يتناول مالك عشاءه.. ولا تسمحي له بالنوم دون طعام.. مهما رفض» .

فوجئت رهف عندما استيقظت في صباح اليوم التالي ووجدت ملك أختها تجلس على الأرض بجانب سريرها.. تصلي.. وعندما ضمتها رهف لصدرها قالت لها ملك بكل تلك البراءة والملائكية التي تقطر منها :

"دكتور مالك علمني الصلاة.. وقال لي أنها ممارسة الحب بين العبد وربه!»

صدمت رهف مما سمعت من أختها الصغيرة.. التي همست لها لتوها بكلمات لا يقولها سوى كبار المتصوفين والزهاد! وأدركت أنها حرفيًا كلمات دكتور مالك ...

كان مالك في حجرته ومعه حمزة ولمياء أخته وهدى أختها.. وكان الجميع في حالة انسجام رائعة ومالك يحكي لهم قصة ما.. لم تهتم رهف بمعرفة ما هي.. وإنما راقبت عن بعد تأثير ما يقول مالك على وجه هدى أختها، التي جذب انتباهها للغاية دكتور مالك.. وشعرت بالغيرة.. لا تدري لماذا.. وكأن مالك صار أحد أملاكها التي ممنوع أن يقترب منها أحد.. أيًا كان!

خرجت تتمشى على شاطئ البحر وحدها وتفكر في مالك.. أنها بطريقة ما متعلقة به، وتريده لنفسها.. ولكنه أحيانًا كثيرة يعاملها كطفلة.. طفلته الفظة.. كما يحلو له أن يناديها.. تذكرت وابتسمت.. وتمنت في تلك اللحظة أن تنزع كل ملابسها وتنزل البحر عارية تمامًا.. وفكرت أنها لو فعلت ذلك سوف تسبب فضيحة كبيرة لدكتور مالك.. وقهقهت ضاحكة عندما تخيلته وقد عرف أنها نزلت البحر عارية.. وتراجعت في اللحظة الأخيرة عن أمنيتها المستحيلة وإن كانت تراها أنها محض حقها.. فلا أحد عاقل يلوم أي سمكة أنها طوال الوقت في البحر بلا ملابس.. وشعرت أنها لم تنل ولا حتى حرية تعادل حرية سمكة !

رأت حمزة قادمًا نحوها من بعيد ويصيح بها وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة :

"أين كنت.. اختفيت من البيت فجأة.. ولم تتناولي فطورك.. دكتور مالك طلب مني أن أخرج ولا أعود إلا بك.. فسنعود إلى القاهرة اليوم."

دخلت حجرة دكتور مالك غير راضية بالمرة عن موضوع العودة للقاهرة.. وعندما اصطدمت عينيها بعيني مالك في حادث مفرح للقلوب.. خاطبها بود :

"جهزي نفسك للعودة للقاهرة.. يجب أن نعود جميعًا اليوم في المساء.. وأعدك أن نعود إلى هنا مرة أخرى في أجازة أطول ولكن بعد أن أنهي مراسم الدفن وأنجز بعض المهام التي تخص شركتي ....."

فقالت له وكأنها نسيت جريمتها وأنها تعلم جيدًا دفن من يقصد :

"دفن من.. ماذا حدث؟ ....."

"منار ماتت.. في حادث سيارة.. هي وفتحي.. والشركة عادت لي.. كاملة.. فقد كنت قد تنازلت لها عن معظم أسهم الشركة.. حتى تديرها بحرية في غيابي.. ولكن الآن الشركة عادت لي كاملة.. مالي أخيرًا عاد لي يا رهف.. فأختها تعرف القصة كاملة وتعرف خيانة أختها لي ولن تطلب شيئًا من ميراثها من أختها لأنها تعرف أنه مالي الذي قدمت ثمنه عمري وشبابي وعلمي.. رهف.. أنا سعيد حقًا ....."

إذا كنت تتجادل مع شخص حفظ ما يقوله ولا يفهمه، وأردت أن تكون لك الغلبة، فعليك بالخروج قليلاً عن النص، أي حدثه عن أشياء لم يسمع بها من قبل.. وهكذا قررت رهف، يجب أن تنتصر عليه بالقاضية.. يجب أن تسأله ويعجز عن الإجابة أو

تخبره ما لا يعلمه.. يجب أن تسبقه ولو بخطوة.. فهي ملت من دور التلميذ الغبي أمامه الذي يتلقى العلم في خشوع ناسك! فهي سبب فرحه الآن.. فجريمتها فقط هي ما أعادت له حقوقه !

سكتت لحظات تتأمله.. ثم سألته :

" لماذا كل من كفر بالله تقدم؟!

أتدري لماذا؟! لأنه لم يعد ينتظر جنة السماء وخلق لنفسه جنته في الأرض.. لأنه صار يدافع عن الخطوات التي توصله لهدفه، ولم يعد ينتظر إله يدافع عنه؛ لأنه قرر أن يعيش في حياته، ولا ينتظر الحياة في جنة السماء بعد مماته.. أليس هذا صحيحًا؟!

ولكني أقول لك الآن أني فهمت، لماذا قد يقبل الله دعوة دون دعوة؛ لأن الإنسان إن تنازل عن حقه في جنة الأرض، فهو لا يستحق جنة السماء، فالاستكانة والضعف والغباء وقلة الحيلة ليست مبررًا للفشل، فالكل يخرج من بطن أمه عارٍ، ولكن هناك من قرر البقاء عاريًا وفقيرًا واستسلم للاستكانة، وهناك من قرر السعي والدفاع عن حقه في الوجود ....."

في البداية بهت من سؤالها ولكنه عاد لنفسه وفكر وأجابها بثقة :

"ليس صحيحًا يا رهف أن الكفر بالله يوصل للتقدم والاعتماد على الذات.. فمحمد كان رجلاً واحدًا.. يتيمًا فقيرًا.. ونشر دينًا ساميًا في كوكب بطوله وعرضه.. ولازال هذا الدين يتبع حتى الآن، وسيستمر هذا الدين إلى يوم القيامة.. فقط لو يتوقفوا عن قتل علماء المسلمين واغتيالهم معنويًا وفكريًا».

فهاجمته بسؤال أخر:

"منذ بداية الخليقة حتى الآن، هل فعلاً انتصر الخير على الشر؟!

لا أظن، فأكثر من قتل وتم تعذيبهم كانوا أنبياء أو رسلاً أو صالحين أو مجرد بشر، الصفة المشتركة بينهم الاستكانة للظلم...

سؤال أخر :

تخيل معي لو كان هابيل «الأخ الطيب» كان قد دافع عن نفسه عندما حاول قابيل «الأخ القاتل» قتله، تخيل لو كان دافع عن نفسه وانتصر، تخيل ....."

فرد عليها :

"ولكنه كان سينتصر أيضًا بقتل أخيه، وكانت معصية القتل ستقع في كل الأحوال.. وهو تنازل عن حقه في الدفاع عن نفسه؛ لأنه أراد أن يكون الأفضل أمام الله".

ثم قرأ لها تلك الآية الكريمة :

(لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).

فقالت له :

"فقط تخيل لو دافع عن نفسه ....."

فقال لها :

"كان سيكون القتل شيئًا شرعيًا مباحًا ومحللاً، وكانت ستهلك البشرية حتمًا.. وعن سؤالك عن انتصار الخير، نعم الخير انتصر بدليل وجود أناس لازالوا يقدمون الخير لوجه اللّه، وهم كثر ....."

فصرخت في وجهه :

"هم قلة.. قليلة ومستضعفة !"

فقال لها :

"ولكن مؤثرة.. لنتحدث عن الكيف.. ليس الكم.. فمعلم واحد يعلم ألف تلميذ.. أليس كذلك؟! "

امتعض وجهها لأنه انتصر عليها.. وقالت له :

"ماذا لو نزعت ملابسي أمامك الآن ماذا ستفعل لتمنعني أيها السيد «خير»".

وبإحكام أغلقت باب حجرته حيث كانت معه وحدهما.. واقتربت منه حتى وقفت أمامه على بعد متر واحد من كرسيه المتحرك الذي قيد به نفسه نفسيًا وبدأت بنزع ملابسها.. قطعة.. قطعة ...

"رهف.. أيتها المجنونة.. ماذا تفعلين؟! ماذا أصاب رأسك؟ "

وفجأة هي أمامه عارية تمامًا.. وشعرها الحريري الأسود الطويل منسدل يداعب خلف ظهرها بنعومة.. وكأنها حورية سماء من فرط جمالها !

فخبأ عينيه بكلتا يديه سريعًا.. ولاحظت هي في نفسها أنه حرك أخيرًا يده اليسرى المشلولة.. فاقتربت منه وجلست القرفصاء بجوار كرسيه المتحرك.. ثم انهالت بالقبل على كلتا يديه.. وهي تجذبها بعيدًا عن عينيه.. حتى تعرت عيناه أمامها.. وحاول الهرب منها.. من جمال شبابها الصارخ.. وفجأة تعثرت نظراته الخجلة في ثنايا جسدها المرمري.. فتاهت عيناه كثيرًا بين بحور جسدها ومحيطاته ووديانه.. وجبلا نهاديها !

وبطريقة لا شعورية مد يده وحاول لمسها.. وداهمته رغبة جامحة في التوحد معها.. في أن يكون هو هي.. وهي هو !

وتحولت الحجرة فجأة من حوله لبحيرة.. يسبح بها مع حوريته الفاتنة.. فحاول الاقتراب.. فابتعدت كغزال صغير بري.. لم يروض بعد على الحب.. فاقترب.. فابتعدت عنه حتى بات سبيله الوحيد للوصول إليها أن يقوم من على كرسيه المتحرك ليلحق بها !

وقاوم.. وقام.. في خطوات بطيئة ومجهدة.. وعبر ألف سد نفسي حتى احتواها بين ذراعيه.. آمنة مطمئنة سعيدة بحلمها الذي تحقق.. لقد شفي حبيبها !

طرقات خفيفة على باب حجرته من يد ملك أختها، أعادته لرشده وصرخ في وجه رهف بينما كلاً منهما كان يقف في مواجهة الأخر :

"ارتدي ملابسك حالاً.. يجب أن تغادري بيتي وحياتي.. أنت مجنونة كليًا.. أنت ....."

فهمست له وابتسامتها تملأ قلبها الذي بدأ يضيئه الحب :

"انظر لنفسك.. أنت واقف على قدميك وتسير وتحرك يدك اليسرى».

"رهف.. كنت أعلم أن مرضي ليس عضويًا.. ولكني رغم كوني طبيبًا عجزت عن علاج نفسي.. فيوم رأيت زوجتي مع صديقي في سريري.. كانت صدمتي لا تحتمل.. فلقد أحببتها حبًا كبيرًا وصدمتي بها كانت قاتلة وغير متوقعة.. كانت أسوأ مفاجآت عمري.. ولم أستطع قتلها رغم فداحة ظلمها لي وإهدارها لشرفي وكرامتي.. فحدث لي شلل نفسي منعني من قتل أحب الناس لقلبي وقتها.. زوجتي وصديقي! لست وحشًا حتى أستطيع القتل.. لقد فطرت روحي على إنقاذ الناس وليس قتلهم."

ثم تابع بعيون باكية :

"لم تكن المأساة تخص «هابيل» وحده عندما قتله أخوه «قابيل» فمصيبة الأخ القاتل كانت أكبر من الأخ المقتول.. فقد حمل جثمان أخيه، وطاف به البلاد لا يعرف كيف يواري سوأة أخيه.. حتى علمه «غراب».. كيف يفعلها.. ووقتها دفن أخيه ودفن معه إحساسه بالذنب تجاه أخيه، ومنذ تلك اللحظة لم يتوقف «قابيل» عن إلحاق الأذى بأخيه.. فقد تعلم كيف يدفن إحساسه بالذنب مع دفن جثمان أخيه ..."

توسلت له :

"تزوجني.. أرجوك.. لا أريد منك شيئًا سوى أن أكون معك."

فقال لها.. وهو يشير لقلبه :

"هنا مقبرة تروج للحياة!!! "

فقالت: «وهنا ميت عاد يبتسم.. عندما دخل قلب تلك المقبرة".

●●●

obeikan.com

obeikan.com

١٢-اذهب إلى قلبك.. إنه طغى!

مضت شهور طويلة على زواج رهف ودكتور مالك.. والآن مالك عاد له كل شيء.. صحته وماله وشركته وقريبًا قد يعود للتدريس في الجامعة.. وهي كانت سعيدة به.. تواصل المذاكرة ليل نهار حتى تنهي سنتها الدراسية الأخيرة في الجامعة بتفوق كما وعدت زوجها.. الذي منحها كل شيء إلا شيئًا واحدًا.. وهو طفل يتوج قصة حبهما.. وبمجرد انتهاء أخر امتحاناتها النهائية اصطحبها إلى ألمانيا؛ ليجري لها عملية «تلقيح صناعي».. حتى تنجب له طفلاً.. يرثه ويكون امتدادًا له كما قال لها.. ولأنها تريد أن ترضيه.. وافقت بلا قيد أو شرط.. وعادت تحمل طفله.. تحمل قطعة غالية من قلبه كما كان يردد دائمًا على مسامعها...

١٤ أغسطس ٢٠١٣:

وبعد أقل من أسبوع من عودتهما من ألمانيا.. وفي ليلة صيفية قليلة الجمال استيقظت رهف مقبوضة القلب على صوت التلفاز الذي كان يذيع فض الاعتصام في رابعة العدوية الذي بدأ يوم ٢٨ يونيو ٢٠١٣ وانتهى في يوم ١٤ أغسطس من نفس العام.. فبدايته تزامنت مع اعتصام معارضي الرئيس بميدان التحرير تنديدًا بسياساته ومطالبته بالتنحي، وبالتالي خرج الملايين على حد

وصف المؤيدين لجماعة الإخوان والمؤيدين لبقاء محمد مرسي من أطياف أخرى كثيرة من الشعب ليست منتسبة للجماعة واتخذوا من رابعة العدوية مقرًا لاعتصامهم منذ يوم ٢٨ يونيو، واتخذ شباب الإخوان وقياداتهم وأنصار شرعية مرسي من كلمة الشرعية شعارًا لهم، فنصبوا الخيام الواحدة تلو الأخرى بالميدان في إشارة لوجود دعم من جزء آخر لا يستهان به من الشعب لشرعية الرئيس المنتخب محمد مرسي في مواجهة المهلة والشروط التي فرضتها القوات المسلحة عليه للخروج من الأزمة، ثم جاء قرار القوات المسلحة بعزل محمد مرسي عن الحكم، وهو ما اعتبرته القوى السياسية المؤيدة للرئيس انقلابًا عسكريًا في حين يسميه معارضو الرئيس المعزول ثورة ...

وكانت نتيجة فض الاعتصام مأساة إنسانية بكل المقاييس لكلا الطرفين.. المعتصمين والشرطة.. حيث أوقعت هذه الأحداث ٥٢٥ قتيلاً ونحو ٤٠٠٠ مصاب من الجانبين.. وتزرعت قوات الأمن المصرية بحجة أن استخدام القوة القاتلة مع المعتصمين قد جاء بعد أن أسقط المعتصمين قتلى في صفوف الشرطة والجيش في حين اتهم المعتصمون قوات الأمن بدس عناصر سرية منهم في وسط المتظاهرين وإطلاقهم الرصاص على بعض أفراد الأمن لافتعال معركة يمكن على إثرها سحق المعتصمين السلميين ..

وحافية القدمين خرجت من حجرتها التي تعودت النوم بها معه منذ تزوجته.. فوجدته يجلس في صالة البيت على أريكة أمام شاشة التلفاز مباشرة ووجهه يقطر حماسًا وفرحة وبمجرد أن رآها جذبها من ذراعها وأجلسها على قدميه بين أحضانه.. وقال لها :

"انتهى أخيرًا كابوس حكم الإخوان لمصر.. تم فض الاعتصام.. لعقود وعقود لن يخرج الإخوان المسلمين من جحورهم.. عادوا ليسكنوا مرة أخرى كهفهم الأبدي ....."

نظرت له بتعجب وهمست وهي تشير إلى منظر القتلى والجرحى على كل قنوات التلفزيون في القنوات المحلية والأجنبية :

"انظر.. لقد مات أطفال ونساء وكبار في السن ....."

فقال لها بلامبالاة :

"كل من كان في الاعتصام خونة أو عملاء.. الجيش طلب منهم الانسحاب أكثر من مرة بصورة سلمية.. ولكنهم أغبياء ....."

فقاطعته :

"هم رفضوا الاستسلام لأنهم ظنوا أنهم على حق.. كان يمكن فض الاعتصام بأي طريقة أخرى غير الدموية!"

فضحك من قولها وقال لها :

"تسلم الأيادي.. هولاء مجموعة من الهمج لا ثمن لهم.. المهم حقًا استقرار البلد مهما كان الثمن!»

كانت مصدومة من آرائه اللامبالية بالبشرية ولا بالرحمة.. وبدأ يتضح لها الكثير من جوانب شخصيته التي لم تكن تعلم عنها شيئًا فقط من خلال تعليقاته على الأحداث.. فقد كانت القسوة تقطر من كلماته.. وظهرت لها حكمته المفضلة «الغاية تبرر الوسيلة» من خلال سياق كلامه وتعليقاته على الحدث الدموي لكلا الطرفين من الشرطة والمعتصمين.. وكانت صدمتها الأولى به.. وكأنها تراه للمرة الأولى على حقيقته ...

لعلنا مخلوقات روحية تمر بتجربة جسدية.. فبمجرد رقي الروح ترتقي تصرفات الجسد.. ف«رهف» وهي التي أزهقت سبعة أرواح بشرية مع سبق الإصرار والترصد.. رأت فيهم رمز الفساد في مجال التعليم والصحة واستغلال السلطة والأخلاق بصفة عامة.. لم تتحمل رؤية الجثث المحروقة على شاشات التلفاز وكأنها أعجاز نخل متفحمة.. وهمست لنفسها.. كيف يبنى وطن على جثث أبنائه لو اختلفوا على من يتولى قيادة السفينة.. مأساة!

وتمضي الأيام.. والشعب فرح بالحاكم الجديد.. وبقوته وحزمه.. الشعب الذي عوقب على ثورته الطاهرة بالجوع والعودة تدريجيًا للقمع بحجة حماية الوطن ومحاربة الإرهاب فطالما.. قالوا تحكم الشعوب بالخوف! وخرج معظم من باع الوطن أو خانه لمدة ثلاثين عامًا من محبسه وحل محلهم أخرين من الذين قضوا في الحكم عامًا واحدًا فقط.. ولكنهم لم يكونوا خونة بل فقط يتصفون بالغباء السياسي الذي حرمهم الوصول للشعب والسيطرة الحقيقية على الحكم !

والكل بدأ يتسابق على كرسي الحكم.. ويعد نفسه ليحصل على قطعة من الكعكة الشهية للسلطة والحكم.. ومالك أيضًا لم يدخر وسعًا ليؤهل ظروفه ليحصل على كرسي وزارة أو برلمان في المستقبل القريب.. وكان عليه أن يؤمن المال لذلك.. ويؤكد مركز شركته الاقتصادي بعد الإجراءات الحمقاء التي اتخذتها «منار» سابقًا أثناء إدارتها للشركة وأدت لضعف المركز المالي لشركته ورخص ثمن أسهمها ...

يناير ٢٠١٤

وبدأت رهف تقرأ من تلك الكتب المكدسة على أرفف مكتبة مالك.. وتفكر.. في تلك الجملة التي طالما سمعتها في أحلامها

«عد لقلبك تجدني».. وتسأل نفسها هل هو صوت الله أم صوت عقلها الباطن يؤنبها على جرائمها؟! وأخذتها الكتب وأخذت منها علمًا لم تكن تعلمه.. وصوت الله داخل قلبها يناديها، يذكرها بما هي له.. حتى استيقظت ذات ليلة من نومها بجانب مالك.. لتجد نفسها ترتعش.. وتبكي وبدأت تسأل نفسها.. كيف ستقابل الله بعد كل ما فعلت؟! هي خائفة حد تمني الموت! لا.. هي تريد أن تكون نسيًا منسيًا.. تكون شيئًا لا وجود له ...

ولا مرة أمرها «مالك» بالصلاة.. رغم أنه يصلي كل الأوقات.. وتعجبت من ذلك.. ولم يطلب منها حتى أن تضع حجابًا على شعرها رغم أنه فرض مؤكد من المولى عز وجل.. وكأن كل ما كان يهمه بها مجرد جسدها الذي استمتع به كثيرًا ثم استخدمه في إنجاب طفل له مهما تألمت هي نتيجة ذلك!

وبكامل ملابسها وقفت في الحمام الخاص بالحجرة التي تنام بها هي ومالك.. وقفت تغتسل.. بماء بارد في ليلة شديدة البرودة من ليالي شهر يناير.. كانت في حالة ذهول من حالها.. لم تهتم بنفسها ولا حتى بالطفل الذي يسكن رحمها.. ولم تهتم حتى بإغلاق باب الحمام عليها.. حتى استيقظ زوجها من قوة صوت خرير المياه على بلاطات الحمام الرخامية .

النـار كانـت تشـتعل في أوصالهـا.. كانـت تشـعر بالقـرف مـن نفسـها.. فذنبهـا كان «وسـخًا» فـوق احتمالهـا ...

لـم تـدرِ إلا ومالـك يجذبهـا عنـوة مـن تحت المـاء المنهمـر في شـدة وعنفـوان فـوق رأسـها التـي تضـج أخيـرًا بالأفكار.. والضميـر.. أسـوأ مزعـج للنفس !

"مجنونـة.. مـاذا فعلـت بنفسـك؟ هـل نسـيت أنـك حامـل؟ وأن هـذا الحمـل كلفنـي الكثيـر مـن المـال ....."

صدمهـا كلامـه.. وشـعرت بأنهـا وعـاء يحمـل طفلـه المبجـل.. ولا أكثـر.. تمامًـا كفرحـه بحمـل فرسـته؛ ليبيـع مهرهـا.. وشـعرت بالنفـور منـه.. نفـور تطـور للقـرف منـه ومـن نفسـها.. وفاقـت وهـو ينـزع عنهـا ملابسـها بقسـوة وهـو يصـرخ بوجههـا ويلومهـا علـى مـا فعلـت وعلـى أنهـا أقلقـت نومـه الهنـيء.

لقـد أحبهـا حمـزة في صمـت ولـم يعبـر عـن حبـه لهـا يومًـا.. وبرغـم وجعـه أنهـا أصبحـت لرجـل غيـره وهـو مالـك أسـتاذه الـذي يحبـه حـد التقديس.. لـم ينطـق بكلمـة بـل تمنـى لهـا الخيـر صامتًـا.. ورغـم أن هـدى أختهـا الكبـرى أقـل منهـا جمـالاً قليـلاً.. إلا أنـه وجـد لقلبـه عـزاءً كبيـرًا في توجيـه مشـاعره نحوهـا.. واسـتقبلت هـدى تلـك المشـاعر برحابـة صـدر.. فحمـزة كان رجـلاً رغـم فقـره، لا يقـاوم..

بنبل أخلاقه وشدة صفائه ونقاء قلبه.. واكتفت هدى منه بخاتم ذهبي بسيط كهدية خطبة وارتباط سوف يجمعهما أمام الله والناس ...

أمام لمياء.. فكان عزاء قلبها الاهتمام بملك.. التي كانت تسليها وتتخذ منها طفلة لم تنجبها.. فلمياء لديها طاقة حب كبيرة تحتاج أن تهبها لمخلوق تشعر أنه في حاجة لها ولحنانها...

مارس ٢٠١٤

فاجأ يومًا مالك رهف بأن اتصل بها هاتفيًا وأخبرها أنه سيعود مساءً للمنزل ويدعوها للعشاء خارجًا.. وأرسل لها فستانًا جديدًا وحذاءً جديدًا وعطرًا هو يحب رائحته النفاذة، رغم علمه أنها تكره أن تضعه ...

وكان منها أن تزينت وارتدت ملابسها الجديدة وهي تقريبًا مخدرة الأوصال والمشاعر، وكأنها إنسان آلي يحركه مالك عن بعد.. ثم هذبت خصلات شعرها الطويل في «كعكة» معقوصة خلف رأسها في أناقة تليق بفستانها الأخضر «الدانتيل».. القصير بلا أكمام وفوقه جاكيت رمادي من «الفرو» ...

كان مالك وسيمًا.. والصحة عنوان ملامح وجهه.. لقد زاد وزنه على الأقل سبعة كيلوجرامات منذ تزوجها.. ولكن كانت

القسوة عنوان كل شيء يفعله أو يقوله لها.. تلك القسوة التي تشعر بها ولا تراها أو يمكنك الإمساك بها مباشرة.. فبمجرد دخولهما المطعم الراقي الذي اختاره ليسهرا به.. اختار فوراً ما يروقه وحده من الطعام لهما وكأنها شيء لا رأي له.. أو كأن رأيها أمر لا يستحق السؤال عنه.. وأمرها أمراً أن تأكل كل محتويات طبقها.. حتى كادت أن تبكي من شدة الشبع.. أو تفرغ ما في معدتها في وجهه ...

وهي لا تدري لما هي مخدرة هكذا أمامه وعاجزة تماماً عن أدنى مقاومة أو التعبير عن نفسها!

ثم رقص معها.. وهي بين ذراعيه تنفذ تعليمات جسده لجسدها وتتبع حركاته وخطواته في صمت.. هي لا تفهمه.. فهي ربما صارت تخافه.. تخاف صفعاته التي لا يبخل بها عليها عندما تخطئ في فعل أو قول شيء ليس على هواه.. تخاف نهره لها ونعتها بالغباء والحماقة.. تخاف إهانته لها لأتفه الأسباب.. أو حتى دون سبب لمجرد أن مزاجه ليس على ما يرام...

ثم وضعها برفق في سيارته.. وجلس بجانبها خلف المقود وقاد السيارة.. إلى حيث ما صار سجنها أو بيته ...

في حجرة نومهما قال لها :

"شركتي تمر بأزمة مالية كبيرة.. يجب أن نبيع القصر فوراً واستثمار المال في أسهم شركتي.. فثمن فيلتك لن يقل عن ملايين.. أنا أحتاج هذا المال يا رهف ....."

ففهمت فوراً سبب دعوته لها على العشاء وسبب الهدايا، أنهم ليس أكثر من مقدمة سخيفة لطلبه بيع القصر واستيلائه على ثمنه، فردت عليه بابتسامة ساخرة :

"لا نستطيع بيع القصر ....."

فبهتت ملامح وجهه وزمجر قائلاً لها :

"لما.. ما الذي يمنع؟ هدى لن تمانع إذا علمت أني سأستثمر المال في شركتي بأسهم لها عائد سنوي معقول ....."

فابتسمت له مرة أخرى وقالت له :

"فقط مدفون في القصر ثلاث جثث! "

وبدأت تحكي له كل شيء عن ضحاياها السبع.. فقد وصلت للنهاية معه وعرفت أنه من اليوم الأول بينهما وهو عيناه على قصرها وثمن بيعه !

وأنهت كلامها بقولها له :

"طلقني.. لأنك لن تحصل على قصري أو ثمنه.. أما عن مشاعري تجاهك.. فنعم نسيتك.. فقد قمت بعمل تعديل لجيناتي.. وغيرت خريطة قلبي التي أهم تضاريسها ملامح وجهك.. ونزفت دمك من عروقي! "

ذهوله كان مروعًا مما سمع منها.. فتركها تجلس فوق سرير حجرة نومهما.. وخرج من الحجرة بعد أن أغلق عليها الباب بالمفتاح وتأكد من حبسها داخل الحجرة ...

وفي عتمة الليل تسلل خلسة إلى بيتها.. تلك الفيلا الكبيرة.. حيث كان يفوح منها رائحة شر خفي.. ويخيل لك إذا نظرت لها من بعيد في الظلام أنها جثة لمسخ ضخم متوحش الملامح حيث لم يعد يسكنها مؤخرًا سوى الثلاث جثث المدفونة بها بعد انتقال الثلاث بنات منها والسكن في بيت مالك الذي يقل في مساحته كثيرًا عنها.. بعد زواج رهف منه ...

تجنب الباب الأمامي للبيت.. ودخل من الباب الخلفي للمطبخ.. الذي تصل إليه بعد العبور على حديقة القصر التي جعل منها الإهمال غابة صغيرة موحشة.. تشمئز منها الأبصار وتقشعر لرهبتها الأبدان.. وأشعل مصباحًا صغيرًا كان يحمله.. قاده لسلم قصير يوصل للدور الأرضي للبيت.. حيث الجثث !

كسر الباب.. ودخل واكتشف كل شيء.. وكان يعرف كيف سيخفي تلك الجثث الثلاث للأبد ...

ظلت رهف مكانها بفستان السهرة الذي كانت ترتديه عندما ذهبت للعشاء خارجًا مع مالك.. حتى نامت مكانها.. فهي حامل في نهاية الشهر السابع، والحمل سلب معظم قواها وعنفوانها.. حتى سلب بعض الشر منها.. وتركها امرأة جديدة ككل النساء تبكي من حزنها عاجزة عن دفعه !

في الصباح دخل عليها مالك واستيقظت وهو يهزها بعنف ويغرز أصابعه في لحم ذراعها حتى يوقظها الألم.. وفتحت عينيها تستقبل يومًا جديدًا وحياة جديدة.. فمالك لم يعد حبيبها وهي لم تعد تلك «المستذئبة» التي تقتل كل ما يعكر صفوها.. بل لقد صارت أمًا تريد حماية ابنها والاحتفاظ به مهما كانت الظروف...

كانت تحتضن بطنها بكلتا يديها حيث موطن جنينها وهي تجلس على حافة سريرها وتنظر لمالك الذي كان مشعث الشعر، أحمر العنين، والتراب يعلو ملابسه وهو يقول لها :

"لقد فكرت كثيرًا.. وأتساءل أي مسخ متوحش أنت.. ولا أدري هل أنت مريضة نفسية.. أم ذئب بشري أم وحش مجهول الهوية.. لقد خدعت بك.. ولكن لنكن واقعيين أنا لا أستطيع تسليمك

للشرطة ولا أستطيع فضح أمرك الشنيع.. لأنك زوجتي وأم ولدي الذي انتظرته سنوات طويلة من عمري.. ولذا.. سأمنحك فرصة عمرك.. ستظلين هنا في بيتي محبوسة في حجرتك كالحيوانات حتى تلدي وبعدها سأساعدك لتتمكني من السفر خارج مصر إلى الأبد.. بلا عودة.. طبعًا بعد تنازلك عن نصيبك في القصر لي ....."

فسألته بوجه خالٍ من التعبيرات :

"وابني.. هل سيسافر معي؟ "

فصرخ في وجهها :

"لا تناديه من الآن بـ «ابني».. فهو ولدي وحدي.. عليه أن يبتعد عنك وعن توحشك أيتها الدموية ....."

ولم تجبه بأية كلمة.. فقط تخيلته بلا رأس فوق كتفيه وابتسمت.. تلك الابتسامة التي تحفظها روحها.. والتي تصدر منها بصورة تلقائية قبل إقبالها على قتل أحد ضحاياها ...

فقالت له :

"أراك تفعل المستحيل وتصبر على المستحيل فقط حتى تؤهل نفسك لمنصب سياسي يحمي مالك وشركتك! أين مبادئك التي

تنشرها للناس في قصصك ومقالاتك أيها الطبيب الفيلسوف المتصوف الزاهد.. أنت قناع مقرف يسير على الأرض.. تحفظ من الحكم والمواعظ ما لا يعد ولا يحصى.. فتلك الحكم حفظها عقلك للتباهي بها دون أن يشعر بها قلبك.. هذا إن كان لك قلب أساسًا!"

ثم سكتت لحظة تتأمله وبعدها أكملت كلامها وهي ترمقه بنظرات قرف :

"أنا توقفت عن قتل الناس لأني صدقتك.. صدقت تلك المواعظ التي تملأ حكاياتك التي اتضح أنها خيالية.. أنا تغيرت.. وعدت لقلبي فوجدت ربي.. أنا لا أحلم بمغفرة ربي على ممارستي القتل لكل فاسد قابلته في طريقي.. فأنا كنت ثورة على الظلم والفساد، أنا فقط أطمع ألا أكون مثلك مدعية الفضيلة لأنال إعجاب الناس وتعاطفهم.. في حين أنك تكره الناس وتكره نفسك."

امتعض وجهه ولم يجد كلمات يسكتها بها.. وليسكت فمها ويداري عجزه أمام صدقها الذي عرى روحه وأطماعه، صفعها على وجهها.. ولم تبكِ ولم تهتز رغم قوة الصفعة.. فقط في صمت تحسست خدها الناعم وقطرات الدم السائلة من شفتيها...

فقال لها :

"أيتها الغبية أنا فعلت المستحيل فعلاً.. طوال الليل وأنا أستخدم نفوذي واتصالاتي ومعارفي لإخفاء الجثث الموجودة في بيتك.. في مكان آمن حتى نتمكن من بيعه.. أنا حميتك أيتها المتوحشة وسأمنحك حياة جديدة بعيدًا عن هنا ....."

وحبسها ومنع عنها الخروج من البيت لأي سبب وأطبق قبضته حولها.. حول وجودها في الحياة.. ومثلت عليه أنها استسلمت وقررت الهرب منه وفعلت.. كانت تعلم أنه بدون توقيعها لن يستطيع بيع فيلتها هي وأختيها ...

في القطار المتجه لأسوان كانت تجلس ترتدي عباءة سوداء وطرحة بنفس اللون.. وكانت تحتضر تعبًا وتموت جوعًا.. فهي هربت منه في المستشفى بعد أن أضربت عن الطعام حتى تجبره أن يصحبها للطبيب.. واشترت تلك الملابس وهي في طريقها من المستشفى لمحطة القطار؛ لتخفي نفسها.. وقصدت بيت الحاجة خديجة.. ابنة خالة جدتها.. التي كانت تحب أمها كثيرًا.. وتودها حتى قبل موتها بوقت قصير ...

سألت كثيرًا حتى وصلت لبيت السيدة خديجة.. ولكنها وصلت أخيرًا لبيتها الفقير الحال الغني برائحة طيبة وطارت بها

فرحًا الحاجة خديجة تلك السيدة السمراء ممتلئة القوام زكية الروح ضعيفة النظر قوية البصيرة، والتي تصافح الناس بحنان قلب أم ...

كانت سيدة وحيدة، مات عنها زوجها ولم تنجب، ولذا عندما طلبت منها رهف البقاء عندها.. فرحت كثيرًا.. وعاملتها على أنها هدية من السماء.. ولم تسألها كثيرًا عن قصتها.. بل رحبت بها بلا شرط أو سؤال ...

وولد أحمد.. ابن رهف ومالك.. وكان كأنه طفل ملكي من شدة جماله وصفاء بشرته وشعره الناعم الأسود اللامع وعينيه الخضراء التي تشبه عيني أمه.. ولكن رهف كانت حزينة حد السماء من أحداث قصة حياتها الغريبة.. ولكن مالك صار شخصًا أخر مخيفًا، عليها هي وولدها البعد عنه!

كانت تعرف أنها لن تستطيع منع لقاء أحمد وأبيه للأبد.. ولكنها قررت أن تربي ولدها وحدها بعيدًا؛ ليكون «الثورة» القادمة على فساد والده وجيله.. كما كانت هي ثورة على الفساد والظلم قامت سنة ٢٠١١!

ففي اللحظة..

التي يدق فيها عدوك بابتسامة واسعة أخر مسمار في نعشك الذي سيقذفه في القبر الذي ستبقى فيه ملعونًا للأبد، تفتح أنت عينيك ويستيقظ المارد الذي يسكنك، وتمد يدك بقوة مهلكة نحو عنقه، وتمسك به، ثم تقذفه بعيدًا عنك، وتخرج واقفًا على قدميك منتشيًا بانتصارك على عدو غبي لم يقدر حجم قوة التنين الذي يطلع من عينيك.. هذا التنين هو فقط شيء اسمه «الإرادة».. ليست إرادة البقاء على قيد الحياة.. ولكن إرادة الانتصار.. إرادة أن تخرج من الحياة مرفوع الرأس بعد انتصار ساحق على أشباح الكوكب من يأس وضعف.. إيمانًا برب عظيم ...

وتلألأت النجمات في السماء محيطة بالقمر في مشهد مهيب لجماله.. فليل أسوان حالم وكأنه ليل ليلة عشق صافٍ.. ولكن رهف كان يجثو على قلبها أطنان وأطنان من الهم.. وبينما وهي تجلس على «مصطبة» خارج البيت الريفي البسيط الذي يتكون من حجرة واحدة وصالة كبيرة تربي بها الخالة خديجة بعض أنواع الطيور.. جاءت الحاجة خديجة وجلست بجانبها.. ثم احتضنتها حضنًا دافئًا يشبه حضن أمها في الماضي لها، وقالت :

«يجلس بجانبك الآن كلب أسود.. مخيف الشكل.. لا أدري كم حجمه.. فأنت وحدك التي يمكنك رؤيته.. أما نحن فنرى حجمه منعكسًا في ملامح وجهك!!! وفي مدى عبوسك في وجه الحياة..

إنه الاكتئاب.. مشاعرك السلبية.. التي تمتص كل شيء إيجابي بداخلك.. وتمنع ابتسامتك.. تمنع ثقتك بنفسك وبالآخرين.. لا يمكنك قتل هذا الكلب الأسود.. ولكن يمكنك ترويضه والسيطرة على مدى كبر أو صغر حجمه.. فقط انظري يا ابنتي لكل إيجابي لديك.. وتأكدي دائمًا أنك تستطيعين بعون الله».

فردت عليها رهف متأثرة من حكمتها التي مصدرها قلب سليم :

"حدثيني عن الرحمن يا خالتي.. ربما يذهب حزني ويطمئن قلبي ....."

فنظرت الحاجة خديجة للسماء وخاطبت خالقها :

"هَامَتِ الأرواحُ فيكَ ومَا سَكَنَت
وأُحْيَتِ القُلوبُ بذِكرِكَ ومَا فَنِيَت
وأُلهِبتِ الأفْئِدَةُ شَوقًا إليكَ ومَا خَمَدَت
سَطَوتَ بِنورِكَ على قُلوبِ عِبَادِك
فَوقَعُوا أسْرَى تَحتَ عِزِ سُلطَانِك
ونَطَقُوا بالمَجْدِ في قُدسِ عَلِيَائِك"

للحظـة تجلـت لهـا ملامـح مالـك في خيالهـا.. فوجـدت روحهـا تهمـس :

"وليس هناك عقاب أقوى.. من أن ينزع اللّه حبك من قلبي".

●●●

obeikan.com

obeikan.com

الفهرس	الصفحة
المقدمة:.....	٥
١- شموع القصر:.....	٩
٢- شجرة الحجيم:.....	٢٧
٣- «أين ملك؟» :.....	٤٧
٤- زائرة منتصف الليل :.....	٦١
٥- غرام في ثلاجة الموتى:.....	٧٣
٦- العاري الأعظم:.....	١٠١
٧- عد لقلبك تجدني:.....	١٢٣
٨- والكاظمين الحب!:.....	١٤٥
٩- عن أي شيء تتحدث؟! :.....	١٦٣
١٠- وصالك هنا:.....	١٨١
١١- ليلة حب.. أخيرة!:.....	١٩٣
١٢-اذهب إلى قلبك.. إنه طغى!:.....	٢١١

obeikan.com

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر

obeikan.com